عبارة غزل

الكتاب : عبارة غزل

الكاتب : فريدة الشوباشي

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : الميلود عرنيبة

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2019/25440

الترقيم الدولي :978-977-6783-02-7

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

عبارة غزل

تأليف

فريدة الشوباشي

السّعيد
للنشر والتوزيع

مقدمة

شيئان لابد من التسليم بهما للصديقة الكاتبة الصحفية « فريدة الشوباشي»:

أولهما: حماستها الغلابة لما تؤمن به: فهي إذ تحب ما تؤمن به - وتؤمن بما تحبه - متأهبة طول الوقت للدفاع عن الاثنين، عاصفة من صدق اليقين ويقين الصادقين.

وثانيهما: أن «فريدة» تحب وتؤمن بعد النظرة الثانية وليس فور النظرة الأولى، بمعنى أن فكرها يمهد لمشاعرها، وذلك يجعل هذه المشاعر طاقة استنارة وشجاعة تفرق ما بين الاعتقاد والعناد!

والمدهش في « فريدة» أن معاركها التي لا تتوقف دفاعا عما تحبه وتؤمن به لم تؤثر على شخصيتها ولا على مزاجها؛ فهي متهللة للحياة، حفية بها، مقبلة عليها، متأهبة بابتسامة تخرج بها إلى عملها كل صباح، وتفاؤل تعود به أخر النهار، مهما كان اليوم حافلا بالأحداث، مرهقا في متابعتها، داعيا إلى الإحباط مع ظرف يغطي فيه الرماد ساحة العمل العام!

بقلم محمد حسنين هيكل

يوميات الخوف

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

مات عبد الناصر .. غصتُ يومها في معاني الكلمات لعلي أفهمها .. كلمة « مات» وكلمة « عبد الناصر» التي كانت تحوي ملايين الكلمات.

كان قلبي يغوص وكأنه عبد الناصر لحظة غوصه في القبر .. غاص قلبي في هُوة سحيقة أظلم من القبر وأنا أتأمل الجريدة وبها كلمة « مات» تسبق هذا الاسم « عبد الناصر» وكأن هناك أسماءً محظورة أن تسبقها كلمات معينة «الموت» مثلا : للكلمة وقع لا يدانيه وقع آخر فالذي مات هو عبد الناصر .. الذي يعني اسمه ملايين الكلمات .. ظللت بعد هذا اليوم أياما طويلة أخشى النوم حتي لا أستيقظ على كلمة «مات» طاردني الموت الذي ذهب به لازمني الخوف منه أياما تحولت شهورا وطالت سنوات.

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

صحوت على عناوين تحمل « تباشير الانفتاح» عدت أرتعد كلما أطل عليّ سلطان النوم وكأنني بيقظتي سأمنع موت المصانع ..

أو بالرغم الزحام والمشقة ودواعي القلق، فإن هناك توهجا لافتا للنظر في شخصية « فريدة» يحتاج إلى تفسير .

مرة يخطر لي أن هذا الوهج طبيعة امرأة مصرية تيقظ وعيها على حلم كبير.

ومـرة أخـرى يخطـر لي أن هـذا الوهـج إضافـة صنعتهـا سـنوات طويلـة مـن عمرهـا عاشـتها في فرنسـا، وهنـاك انطلـق فكرهـا عـلى أفـق أرحـب.

ومـرة ثالثـة يخطـر لي أن تجربـة باريـس جعلتهـا تـدرك أن حلمهـا في الوطـن قابـل للتحقيـق، وأن الفجـوة التـي فاجأتهـا بـين طبيعـة الحلـم وظاهـر اسـتحالته ليسـت طبائـع أشـياء، بقـدر مـا هـي - إلى درجـة مـا - أحـوال قـوة رأت بعينيهـا درجـة بأسـها أثنـاء حياتهـا مـع الظـروف والقضايـا والنـاس طـوال سـنواتها الأوروبيـة.

والخواطـر كثـيرة، لكـن هـذا الكتـاب قـد يكـون أقـدر عـلى التفسـير مـن حيـث إن فصولـه -ومشـاهده الإنسـانية - تعـرض نفسـها ومضـات مـن حيـاة صاحبتـه وتجربتهـا، فعـلى هـذه الصفحـات لمحـات مـن حيـاة كاتبـة تحلـم وتفكـر، وتحلـم وتتحـرك، وتحلـم وتثـور، وتحلـم وتتـصرف، وهـي في كل أحـوال الحلـم تعـرف كيـف تفـرق بينـه وبـين الوهـم، واعيـة أن المبـادئ أجـدر بالحـب، وأن اليقـين عـصى عـلى تقلبـات الأحـوال في أزمنـة تقلبـت وتبدلـت فيهـا أحـوال أوطـان، وتغـيرت وجـوه وجلـود، ودارت رؤوس وتواضعـت همـم، ولعلهـا قـررت بينهـا وبـين نفسـها وبينهـا وبـين قرائهـا أن كبرياءهـا الوطنيـة والإنسـانية - إلى جانـب تلقائيتـه - أكـثر ضرورة الآن مـما كان في أي وقـت مـن قبـل، لأنـه تأكيـد قيمـة وإحيـاء معنـى، وكذلـك مضـت عـلى طريقهـا - ولا تـزال.

كـما كنـا نقـول «مكاسـب الثـورة» .. أيقظـت كلمـة «الثـورة» صـورتي وأنـا صبيـة صغـيرة بعـد .. وفرحـة طاغيـة تحملنـي عـلى جناحيهـا لتحـط بي أمـام بيـت «الباشـا» في مدينتـي الصغـيرة .. صرخـت يومئـذ .. « لتسـقط الألقـاب» .. مـرّ عقـدان لأعـود وأقـرأ في صحيفـة الوفيـات .. تنعـي الأسرة : ابـن فـلان باشـا .. واللقـب بغـير قوسـين .. وكأن عبـد النـاصر لم يكـن

.. وكأنني لم أرتعد ذعرا منذ رحيله حتى لا أنام وأصحو على رحيل جديد له .. قررت بدوري الرحيل.

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

حضنت قاهرتي الحبيبة بعيني ..آخر ما أودعته فيها كانت دمعة ساخنة .. دمعة فراقي لها .. أمسكت بيد طفلي الصغير .. استسلم ليدي وهو لا يعرف إلى أين يُقاد ولا لماذا تنهال دموعي؟ كان فرحا بركوب الطائرة .. سألني .. سنذهب للقاء بابا؟ ضممته إلى صدري بقوة وقلت .. نعم؟

خرجت نعم باهتة لا أثر فيها لفرحة لقاء مرتقب .. وكأن مطار القاهرة مركبة حملتني إلى مجال انعدام الوزن .. في رحلة جديدة إلى المجهول .. عدت أخاف النوم حتى لا أراني في أحلامي الكابوسية لا أعود أعانق قاهرتي أبدا .. قد لا يوجد فيها مقابر للمسلمين .. ظل الكابوس يلاحق أحلامي.

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

صرخت .. ليس معقولا أن يذهب للقدس!! قال بعض الحاضرين .. فعلا ليس معقولا .. قال البعض الآخر: لا تستبعدوا شيئا عليه .. بدأ قلبي رحلته المعتادة للقبر .. قبر أكثر غورا من قبر عبد الناصر .. كان قد قال : « إن ما أُخذ بالقوة .. لا يُسترد بغير القوة» .. وكم قال .. وقال .. قال : أقسم بالله العظيم أن نحرر الأرض العربية شبرا .. شبرا .. ردد عمال حلوان القسم وراءه .. رددت أمام التليفزيون القسم وراءه .. رددنا جميعا القسم وراءه .. شرخ الحزن صوتي .

قلت لابني: هذا لا يحدث .. لن يجسر .. كلام للاستهلاك المحلي

.. لم يفهم ابني كلماتي لكنه أومأ برأسه موافقا .. ربما إشفاقا عليَّ .. طاردني كابوس من نوع آخر .. آلاف المصريين يهللون في المطار للعائد من القدس .. المحتلة .. امتلأ حلقي بمرارة كالعلقم .. تسرب العلقم إلى خلايا جسمي .. انتقلت العدوى إلى روحي.. جاءت المرارة في أحلامي تشبه بيجين « المؤمن» .. يضحك له ضحكة .. لا يضحكها إلا لصديق عزيز .. اشتد ذعري كلما أطل عليَّ سلطان النوم الكابوسي .. والذين يهللون للعائد من القدس .. المحتلة .. ينهشون جسدي .. قطعة .. قطعة .. ودمائي تنزف وسط ضحكاتهم المسعورة.

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

حزنت حزنا من نوع غريب .. رُفع علم إسرائيل في سماء القاهرة .. ترك الحزن الثائر مكانه لغثيان ممزوج بالعجز ..عجزتُ حتى من أن أتقيأ ما بداخلي .. شعرت وكأن ما بيني وبين القاهرة أطول ملايين المرات من رحلة كولومبيا .. داهمني خوف ثقيل .. خوف ممزوج لدوره باليأس .. بزغت شمس وأخرى والناس في القاهرة يمرون من الشارع .. وعلم إسرائيل يخفق فيه .. صرخت في أحلامي الكابوسية .. صرخت بتوسل: أخفوا العلم حتى يمر عبد الناصر من الشارع .. لم يستجب أحد لصرخاتي .. أو توسلاتي .. خفت أن يصاب بسكتة قلبية جديدة .. دهشت وأنا أكتشف أن قلبي لم يسكت .. لم يعد ينبض نفس النبضات .. تغيرت خفقاته للقاهرة .. فتحت كتابا في التاريخ .. خفت أن يأخذ عقلي إجازة أبدية وقلبي ينبض بعد .

يوم كذا .. شهر كذا .. سنة كذا ..

أصاب غسالة الملابس خلل .. خفت أن أظل أياما أغسل الملابس بيدي .. أمسكت بالتليفون أتعجل مجيء المصلَّح!

أصابني قلق من نوع جديد .. نمت ورأيت كل ما بالمنزل يصيبه خلل .. فزعت .. وخاطر العودة لحياة ليس فيها أدوات كهربائية مريحة يخنقني .. أيقظني إحساس بالدوار .. خطر لي أن أقارن بين حزني لعطل الغسالة وزيارته للقدس المحتلة .. رائحة عفن المياه الآسنة في غسالتي العاطلة أصابني بغثيان قاتل .. اختلطت رائحة عفن المياه الآسنة برائحة العائدين من القدس المحتلة .. تهلل وجهي لرؤية المصلح .. خلصني من رائحة المياه العفنة وكأنه خلصني من جثة ملأ عفنها المكان .. خفَّت حدة رائحة العائدين من القدس المحتلة .. اتجهت نحو البار .. صببت لنفسي كأسا من الويسكي حتى يخف حزني .. الذي خف .. على القدس .. المحتلة .. تملكني رعب هائل وسلطان النوم يطل برأسه .. رأيت في يقظتي كل ما سيكتب بصحف الغد .. مات عبد الناصر .. صُفيت شركة كذا .. ثبت فساد نظرية القطاع العام.. «المؤمن» يستقبل وفدا إسرائيليا زراعيا لبحث بيع النيل بثمن رمزي .. الغسالة .. غسالتي عطلت .. الخميني منع الويسكي من العالم .. آلاف المصريين يهللون للعائد من القدس المحتلة .. مناحم بيجين يؤكد حق اليهود في الإقامة أينما يحلو لهم .. ولو لم يحلُ لنا .. اشتد الغثيان .. تصبب العرق من جبهتي . تساءلت إذا كان من حقي أن أطلب مقابر للمسلمين في بلد الغربة .. خفت أن يُرفض طلبي .. «الحرب اللبنانية» دخلت عامها الـ ... لماذا لا يتصالح الكل؟ كل العرب، هجم عليَّ سلطان النوم بقوة .. قبل أن أتوصل إلى إجابة.

عبارة غزل

كانت تسير شاردة في أوسع شارع بالمدينة تسبح عيناها في سحابة من الحزن العميق، تحجب عن رؤياها كل زواق الواجهات التي تسرق الأنظار على جانبيه .. نفس الواجهات التي مرت بها بالأمس وجذبتها أكثر من مرة .. وسرحت معها بخيالها ترتدي كل ما فيها .. وتبتسم ابتسامة حلوة لكل ما ترتديه .. بخيالها .. لم يكن معها سوى جنيه واحد في هذا اليوم الذي تودع فيه شهرا لتستقبل آخر جديدا.

وابتسمت ابتسامة ضيقة.

لا مفر .. هي مثل كل الموظفات .. والزوجات .. تشعر برغبة في الانتقام من آخر أسبوع في الشهر .. أي شهر .. وتتمنى لو جرد الله الأشهر جميعها من آخر أسبوع فيها .. ولكن .. رغبة الشراء اليوم أقوى من كل شيء وسرت رجفة في أوصالها .. يا إلهي .. ماذا تجد في حدود ثروتها المتواضعة ؟

وأخذت تذرع الشارع بخطوات متمهلة تبحث عن ضالتها المنشودة .. لا تكل قدماها وهي لا تنتبه إلى أنها تواصل السير منذ ساعة في نفس الشارع .. وتسمرت قدماها فجأة .. وبدا وكأنها عثرت على كنز .. لا يهم .. سوف تشتريه .. لابد أن تشتريه .. وغدا أول الشهر .. عادت تتفحص من جديد هذا الشريط المشغول .. كم هو جميل .. ستضعه تاجا فوق رأسها .. بل مر بخاطرها لحظة .. أن من صنعه تفنن في صنعه من أجلها .. وارتدته بخيالها .. ثم توجهت بخطوات ثابتة إلى داخل المحل وخيالها يلهث .. وابتسامتها تلهث وراءه وهي «تراه» مفتتنا بتاجها الجديد ومغازلا إياها بقوله:

- إيه الجمال ده كله !

«ربما قالها .. من يدري ؟»

ربما حرك هذا الشيء الصغير الجميل .. مشاعره .. وتعود بذلك إلى مسامعها تلك النغمة الحبيبة التي خفت صوتها منذ أمد بعيد .. وحاولت أن تهرب من ذكرى يوم .. كانا في السينما:

- يا شيخة .. إنتي بتصدقي الكلام ده .. فيه حب .. يفضل بالحرارة دي .. عشرين سنة ؟

- ما يفضلش ليه يا أحمد؟ ده اسمه الحب .. لأنه بيستمر! ورد في هدوء ساخر .. عشرين سنة! دا الواحد يموت من الحب .

وشعرت أن الحجرة التي تضمها معه قد انشطرت إلى نصفين يدور كل منهما في فلك مستقل .

وتنبهت على صوته:

- الحب مش ممكن .. مستحيل يستمر بالشكل ده .. بيتحول بعد كده لصداقة .. دي سنة الحياة .

- لعنة الله على هذه السنة .. لا .. وألف لا .

- أنا شخصيا أحب جدا الأفلام اللي من النوع ده .. وبصدقها .

وضحك متهكما :

- أصلك عبيطة !

ولكن من يدري .. ربما حرك هذا الشيء الصغير .. الجميل مشاعره في هذا اليوم بالذات .. وامتلأت قدماها بشحنات هائلة من الحماس .. واندفعت تشتري تاجها الجميل .. وضغطت عليه بكلتا يديها .. واتجهت نحو منزلها في خطوات سريعة أقرب إلى القفز .. لقد غامرت بآخر ما تملك حتى لا يقوى على منع نفسه من الإفصاح عن إعجابه بـ «عبارة غزل» كم هو حاد ذلك الحنين إلى سماع مثل تلك الكلمات!

وسألت أعوامها الثلاثين إذا ما كان يليق بوقارها أن تحتاج إلى «عبارة غزل»؟ وهزت كتفيها هازئة من وقار العالم .. ذلك الوقار الذي يجعل من كلماته «إحنا خلاص .. راحت علينا» مطارق تدق فوق أعصابها وتفقدها الرغبة في الانطلاق بشبابها .. لن يلوم ذلك التصرف «الأحمق» وهو يصفه بأنه جعلهم على الحديدة. إذ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. وليذهب الوقار إلى الجحيم .. نعم إنها في حاجة إلى عبارة غزل .. وخيل إليها أن تصرخ بذلك في عرض الطريق، متحدية بصراخها تلك الحمرة التي عادت تعلو وجنتيها ووصلت إلى شقتها وعثرت على تسريحة بدت معها «ملكة» متوجة في مملكتها الصغيرة، واختارت من دولابها أجمل ثوب .. وتعطرت بأجمل ما في مجموعتها من عطر . نفس العطر الذي أحبه وأبدى إعجابه به في مثل هذا اليوم منذ عشرة أعوام .. وكأنها ذاهبة إلى أول موعد حب .. ما أحلى مواعيد الحب .. وسرت في أوصالها رجفة التاسعة عشرة .. نعم كانت قد أتمت تسعة عشرة عاما .. وكانا معا في الجامعة .. ودق جرس الباب .. وعلت دقات قلبها حتى ظنته يسمعها بنفس القوة التي تسمع هي بها جرس الباب .. وهرعت تفتح في لهفة وكأن أياما عديدة قد مرت دون أن تراه .. وكل قطعة من ملامحها تبتسم .. بل إن وجهها نفسه قد تحول إلى ابتسامة كبرى .. ابتسامة «الملكة المتوجة».

وتطلعت إلى الدهشة في عينيه.

- إيه .. أنتي خارجة؟

وهـزت رأسـها بالنفـي .. وغاصـت ابتسـامتها .. وتجمـدت في وقفتهـا.. حتـى شـفتاها المنفرجتـان بالابتسـامة وكأنهـا تمثـال .. وشـعرت بروحهـا تذهـب بعيـدا .. بعيـدا .. ومعهـا كل ملامـح الحيـاة .. ومعهـا أجمل ابتسـامة كانـت منـذ قليـل تـضيء وجههـا. إذ كانـت نظرتـه تـصرخ: «أنتيمجنونـة» .

وسألته والكلمات تتعثر بين شفتيها :

- إيه مش عاجبك الشريط ؟

أجاب بشيء من الرثاء :

- يا شيخة عيب انتي كبرتي!

واحتبسـت الابتسـامة خلـف سـحابة الحـزن التـي كسـت عينيهـا .. كانـت هنـا بالأمـس .. أمـام تلـك الواجهـة .. وهنـا كان الشريـط .. وواصلـت السـير وهـي تبتسـم في مـرارة .. فلـم يكـن الشـارع هـو نفـس شـارع الأمـس.. وكأنـه انتقـل إلى أعماقهـا .. وخـرج بثوبـه الجديـد .. الحزيـن .. وكأنهـا وحيـدة في قلـب الشـارع .. في قلـب المدينـة .. في قلـب العـالم بـاسره.. إن كل مـا بداخلهـا يشـعر بالحـزن العميـق .. وصـدى عبارتـه « يـا شـيخة عيـب ، إنتـي كـبرتي» .. يزحـف ثقيـلا ويطبـق عـلى رئتيهـا وخيـل إليهـا أنهـا لابـد أن تتجـه نحـو محـل كئيـب .. وأنهـا في نهايـة رحلـة العمـر لا تقـوى قدماهـا عـلى حملهـا فدخلـت تسـأل عـن « عـكاز» واصطدمـت في شرودهـا بجسـم هائـل .. وأفاقـت لحظـة .. وقـد اكتسـت وجنتاهـا بلـون الدمـاء وتمتمـت هامسـة:

- آسفة .

وضحك شاب قائلا:

- العفو يا مدموازيل !

ثم استدار بعد خطوة واحدة :

- حلوة

وشعرت بزغرودة تنطلق في أعماقها !!

رسالة إلى أينشاين

ألقت نظرة على قطعة الصابون الموضوعة فوق الحوض .. ترددت في رفعها .. تطلعت إلى المرآة .. زادت الشعيرات البيضاء في رأسها .. واحدة .. اثنتان .. ثلاث .. عشر .. ألف .. أتى إليها صوت الآلة الحاسبة التي تعمل عليها بسرعة هائلة .. بدأ صوتا .. ثم طنينا .. ثم هديرا .. كل «التروس» تعمل معا .. وحوش صغيرة.. ضارية .. لا يمنعها صغر حجمها من الفتك بقوة هائلة.. صرخت الوحوش .. عدد الشعر يقدر بالملايين .. فلتحص الشعيرات البيضاء نسبة إلى شعرها الأسود .. كفى! لا تريد أن تعرف عدد شعيراتها البيضاء .. ولا عدد السنوات التي حملتها إلى رأسها .. أمسكت بقطعة الصابون بين يديها تصنع بها الرغاوي .. فقاعات كبيرة .. متوسطة.. وصغيرة الحجم .. الفقاعات الصغيرة أكثر عددا .. عشر.. مائة .. مليون .. عاد الطنين يصمّ أذنيها .. مدت يدها سريعا تحت خيط الماء المنساب .. قُطع تيار الكهرباء عن الماكينة لحظات .. هدأت الوحوش الضارية.. أو جبنت .. عادت تملأ كفيها بالصابون وهى مغمضة العينين، حتى لا تعود إلى عد الفقاعات .. أخذت تملّس على وجهها وعيناها لا تزالان مغمضتين .. لحم بعشرة جنيهات .. طماطم بخمسين قرشا .. بطاطس بسبعين .. علا صوت الماكينة .. دمدم في خلايا مخها وهى تلهث وراءه .. زبد بجنيه .. بصل بثلاثين قرشا .. ثوم بـــ .. فتحت عينيها والصابون يملأها .. سالت دموعها بغزارة.. توقف صوت الماكينة الحاسبة .. فجأة .. تدفقت دموعها وكأنها تنبع من بحر لا قرار له .. أغرقت وجهها بالماء الذي اختلط بقطرات الدموع الساخنة .. مدت يدها تسحب منشفة .. في حقيبة ابنتها ورقة تطالبها بدفع جنيه .. رسم اشتراك في رحلة مدرسية .. ارتعدت وصوت أمها يأتيها حاسما،

مخترقا سنوات وسنوات مضت: من أين لي بعشرين قرشا رسم اشتراك الرحلة ؟ .. ابتسمت في سخرية .. كانت الرحلة ثلاثة أيام .. رحلة ابنتها نهار واحد لزيارة الأهرام والآثار .. لم يتصور صانعو حضارتنا القديمة أن «بضاعتهم» ستدر الملايين عبر القرون .. قد يكفي ما تحقق دخله من زيارة الآثار .. لبناء حضارة جديدة .. عشرة ملايين .. مليون مليون .. بدأت الحاسبة تعوي عُواء مفزعا .. فهي المرة الأولى التي تسالها عن ملايين الملايين!! اندفعت مهرولة تحتمي من هول الرعد بالارتماء على مقعد قديم .. بال .. تزلزلت في جلستها وأخذت أنفاسها تتلاحق .. هدأ الزلزال والرعد .. أصبح صوتهما يأتي من بعيد .. لو أصيبت بالصمم! خفّت حدة الصوت لكنه لا يزال مسموعا .. تطلعت إلى جدران الغرفة الصمّاء .. تشير عقارب ساعة الحائط إلى لحظة المغادرة للعمل .. لم تقوَ على النهوض .. مقدمة برامج تليفزيونية قدمت منذ أيام نموذجا «لميزانية تليفزيونية».. أسرة من أربعة أشخاص .. دخلها خمسون جنيها !؟

قهقهت بصوت عال .. وجهها لا يزال عابسا .. زوجها وهي دخلهما مائة وسبعون جنيها .. إيجار عشرة جنيهات.. كهرباء عشرون .. تليفون ثمانية .. أنبوبة الغاز جنيه .. بواب ثلاثة جنيهات .. وإلا .. زيت .. صابون .. لحم .. خضار .. هجمت تروس الماكينة لتفتك بأذنيها أولاً .. رفعت يديها تحميهما في ذعر هيستيري .. تطايرت الأرقام من الماكينة في كل اتجاه .. أخذت تصيب كل قطعة من حواسه .. تصدر فحيحا أشد كرها من صوت الأرقام .. وأشد إيلاما .. وهي تصوب إليها نظرة جامدة.. خالية ؟ .. من أي تعبير .. الكهرباء مليون جنيه .. الإيجار خمسة قروش .. جُنَّت الأرقام فجأة .. الشعيرات البيضاء مليون.. فقاعات الصابون مليار ..خرجت الأرقام تتراشق في جسدها المنهك .. خرجت كالنمل المفترس تقرض خلاياها .. تنخر فيها بحدة .. تأكل حتى نخاعها .

لم يبق منك غير رقم 13

لماذا ؟ .. لماذا لم تنتق حواديتك أو بالأحرى .. معتقداتك ؟ لماذا يا أمي جعلتني أعدو هلعة أمام قط أسود .. أسند قلبي حتى لا يسقط مني .. وأضمه حتى لا ينشطر نصفين؟ لماذا يا أماه كنت أظل أياما عديدة أراقب السماء حتى لا تمطر جحيما .. والبحر حتى لا يغرقني فيض وحوشه الغامضة المفترسة إذا سمعت أذناي نعيق بومة !! .. يزغرد قلبي في غفوتي وأنا أجري في حديقة كل ما فيها أخضر حتى الأسوار .

ما زلت أذكر يوم الجمعة .. ورائحة البخور تعبئ المنزل .. وصوت ملئ بالشجن ينبعث من الراديو مرتلا القرآن .. ما زال صوتك يرن في أذني وكأنك تطلقين حقيقة علمية أكدتها التجارب:

الخضرة في الحلم سعادة .. اللهم تسعدنا يا رب! العياط فرج !! وتنطلق دعواتك وقت الأذان .. تلهثين بها حتى يستمع الله إلى أمانيك في لحظة زمنية معينة .. ثم يستجيب .. وأنا طفلة .. أرقب ذلك كله من بعيد .. أرقب اختيارك للحظة .. لم أسمعك يوما تضمنين طلباتك من الله سوءا لأحد .. وقد كان يستمع إليك مباشرة .. و»الله أكبر» تملأ الوجود.

كبرت .. وكبرت أنت معي يا أمي .. كبرت معي وأنا أطرق بخجل أبواب الجامعة .. أحملق بفضول في عرض الأزياء الغريب .. ثم اعتاده .. تسخر مني العارضات «ونفسي» ترتدي ثيابك .. ثم تعتدن عليك بداخلي .. وأمام عيني بطاقة الاختيار .. تسألني القرار .. وتمردت عليك .. اخترت كلية العلوم تحديا لك .. بداخلي .. فقد عشت حياتي قبلي

.. وليس من حقك أن تعيشيها مرة أخرى من خلالي .. تمردت على وجودك الراسخ في أعماقي .. وأحنيت رأسك للعاصفة .. عاصفة كلية العلوم وابتسامة راضية تستقر فوق شفتيَّ بعد مشواري في معمل الكلية .. وأنا أرى يقينا .. أن القط الأسود ونعيق البومة والخضرة في الأحلام لا أثر لهم في نتيجة التفاعلات الكيماوية. فمهما نعقت بومة فإن الماء دائما .. دائما هو نتاج اتحاد الأوكسجين والأيدروجين.

وقابلته ..

فارسي الحبيب .. قابلته مرة لم تنقطع .. كان يستلقي من الضحك إذا ضبطك تهمسين بشيء من داخلي .. ويعيد على مسمعي المعادلات الرياضية .. وأنت دائما الشيء الوحيد الذي يعارضه .. كان يحبك أنت .. في وجودك .. وأنت تطلقين دعواتك وقت الأذان .. ولكنه أبدا لم يحبك بداخلي . لم يترك فرصة إلا وحاول اقتلاعك. لولاك يا أمي لما حدث ما حدث .. فقد أكد لي هذا الشهر أنك لم تغيبي عن أعماقي لحظة .. لم يخل مكانك في قرار كياني لحظة .. وكنت أنتظر انتهاء قبل أن تخرج وحوش البحر في فيضه لتلتهمني .. تخرج كلها لتلتهمني .. قبل أن تمطر السماء صواعق .. كان شهرا أخافه .. أترقب انتهاءه لأحتفل بعيد زواجي من فارسي الحبيب .. وأتخلص منك حقا .. وإلى الأبد .. كنت أعدّ الأيام لينتهي الشهر ويهزمك بداخلي فيؤكد لي أنك عشت قبل انطلاق الصواريخ إلى القمر .. كنت أعد الأيام بصبر نافد بعد أن تحديت القط الأسود ونعيق البومة وخضرة الأحلام .. وبعد تفوقي في عملي وأنا أمارس كل شيء بالمعادلات والأرقام ولا تخيب معي نتيجة .. رغم ابتسامتك الساخرة وأنت تسمعين .. «يا سلام على عقلية فايزة .. عقلية علمية فعلا!!» وتأكدت أن هذا الشهر سيعبر بي إلى بر الأمان منك يا أماه ..فرغم الحب الذي ظل يرفرف على أيامي معه إلا أنني

كنت أخشاك .. وانقلب خوفي الهادئ إلى رعب قاتل في هذا الشهر بالذات .. وأخيرا .. جاء آخر أيامه .. وفرحت .. فرحة وجلة .. مترددة تخشى الانطلاق .. فرحة تقيدها ساعات قليلة تبقى على انتهاء الشهر تماما .. فرحة «مشروطة» ورقصت وأنا أحاول أثناء رقصي إخراجك بالقوة كما لو كنت في «زار» هل تذكرين تلك الدقات التي كانت تحرك ما يكمن في أعماقك .. هس .. اسكتي يا أماه .. فأنا أسمع موسيقي الجاز وليست طبول الزار .. كنت أنتظر خروجك لتعيشي إلى الأبد في قريتنا الصغيرة .. تحتفلين بنا يوم الجمعة وتطلقين دعواتك وقت الأذان .. وذبت معه في قبلة عميقة وهو يعطيني هدية احتفالنا .. كم كان رقيقا يا أماه .. وشربنا نخب هذا اليوم .. وشربت معه حتى لا أدع لك مجالا تتفوهين فيه بكلمة .. كنت أتوسل إليك أن تتركيني هذه الليلة .. هذه الليلة بالذات .. وشربنا أكثر ولكنك يا أمي صحوت رغم كل شيء .. صحوت في ليلة كنت أتمنى من أعماقي فعلا أن تتركيني فيها وشأني .. فقد روى لي حبيبي كيف اشترى هدية عيد زواجنا مع صديقتنا .. وفجأة انسابت دمعه من عينيه .. وانخلع قلبي مني .. وسألته وأنا أرتجف من السماء والبحر عن سر دموعه .. وانهمر السيل وهو يمسك بيدي .. فقد قال لي: إن «صديقتنا» هي أيضا عشيقته .. ملأت دموعه الكأس .. قل تسمعين؟ عشيقته .. هرب مني إليها لم يحتملني هذا العام .. لم يحتملك تطلين برأسك وتعيدينني إلى ردائك الذي طويته بعد مشوار المعامل لأرتديه من جديد .. وعلا صوتك في الشهر الأخير منه .. علا ضجيجا محموما لم يحتمله .. فهو كما تعرفين أستاذ بكلية العلوم رسالته تلقين «العلم» .. حياته تجارب علمية تخلو من قطك الأسود ونعيق البومة .. وخضرة أحلامك.

وتجمدت كل الأحاسيس في صدري .. سرت البرودة في مراكز إحساسي كلها .. فقط .. تسلل صوتك إلى أذني وأنا أسمعك كلما ظهر رقم « ١٣»

في النتيجة.

" استر يا رب !! ".

هل تذكرين يا أمي أن اليوم هو العيد الـ « ١٣» لزواجنا؟ أظنني كتبت لك عن ذلك في خطاب سابق كنت أضحك فيه من تشاؤمك من هذا الرقم .. وقد حاولت الهروب من ذلك الشعور الطاغي الذي لازمني منذ الفجر التالي لاحتفالنا الثاني عشر .. وحتى اليوم .. أعلمت يا أمي لماذا أعاتبك؟ قال لي حبيبي إنه لم يخني أنا .. ولكنه خانك أنت .. أنت بداخلي طبعا يا أماه .. فهو أبدا لم يحبك بداخلي.

ورغم مذاق العلقم في حلقي .. فأنا لا أخشى شيئا على ابنتي مني .. فهي لم تلحظ سحابة الحزن التي استقرت فجأة في عيني والتي عبرت احتفالنا الثالث عشر .. فمنى .. تتابع بشغف رحلة أبوللو إلى الفضاء وقد أوشك حزني أن يتبدد .. عندما استدارت نحوي وقد قطعت حزني بتساؤلها البريء .. «ماما .. فالنتينا جابت ولاد؟»١.

١ فالنتينا رائدة فضاء سوفيتية.

سارق الحلم

- اخرسي !!

طنّت الكلمة في أذني كزلزال عنيف. لم أشعر معه بيده الغليظة، الخشنة، وهي تهوى بعنف على خدّي .. تصاعد دخان غليان دمائي من جميع مساماتي المفتوحة .. تكورت في قلبي كتلة كادت توقف نبضه .. كان لابد كي أتخلص من وجعها أن أنشب أظافري في عنقه. وأتلذذ والكتلة الكروية التي تجثم على قلبي تتدحرج مع أنفاسه الخابية .. حتى تخرج من أحد ثغور مساماتي .. وهو يلفظ آخر أنفاسه .. وقفت أمي خلفه .. مشدوهة .. تتأرجح نظراتها المستكينة .. البلهاء .. بيني وبينه .. تائهة .. زائغة العينين .. لا تعرف أي سبيل تسلك .. ضغطت على أسناني حتى كادت تتهشم .. تجمدت دمعة في عيني أصابتهما بغشاوة كثيفة .. تحولت إلى ستار أسود .. حالك.

أفقت على رائحة حادة .. غريبة .. طالعتني ابتسامة «محايدة» من الطبيب .. ربت على كتفي وهو يقول:

- كتبت لك دواء مهدئا .. بإذن الله تصبحين عال العال.

انفجرت في بكاء مزق أحشائي. وكأنه يوم .. وفاة أبي .. ملأت صورته كياني وأنا أستحلفه بعمق جرحي أن يُبعث من قبره البعيد .. أن يأتي يقتص لي .. يطرد الغازي الجديد للعش .. الذي كان هادئا .. أن يطرد .. لا بل يقتل مرسي .. زوج أمي.

أشار الطبيب على أمي بأن تتركني علّني أُفرغ قلبي من الكتلة التي تحجرت فيه .. تدفق نهر غزير من عيوني .. والكرة لا تتزحزح ..

وكأن خدي الذي وصمته الصفعة .. عورة .. فالتصقت يدي عليه تخفيه .. أو ربما تحميه .. خرجت أمي وتركت باب غرفتي مواربا .. كرهت نظراتها الملتاعة البلهاء .. تنفست الصعداء وقد أصبحت وحدي .. مع أبي .. قلت له:

- أرأيت؟ تربع الغريب في مملكتك .. غزار سريرك .. صفعني .. وعوى .. «اخرسي».

خفض أبي بصره .. لم يقوَ على النظر في عيني .. تذكر يوم اصطحب مرسي معه من القهوة .. عشر سنوات مرت على ذلك اليوم .. زارنا مرسي فيها .. عشر سنوات .. وبقيت من سن الثامنة إلى الثامنة عشر أتقوقع على نفسي كلما لمحت طيفه بالبيت .. أشعر به كابوسا لن يترك صدري إلا حطاما .. قال لي أبي:

- لماذا يا نادية؟ مرسي رجل طيب!!

سقطت الكلمات في حلقي قبل أن تخرج إلى شفتي .. لم أجد ردا على تساؤل أبي .. لماذا؟ لكن دمائي بدأت تجري .. محمومة في كل اتجاهات ودروب جسدي .. فقد أحببت كل ما أحب أبي .. إلا مرسى .. ولم تكن «لماذا؟» التي قالها بشيء من التعجب أول «لماذا؟» أسمعها .. فكم سألتها لنفسي .. خاصة! .. كلما تودد مرسي إليّ .. لحظتها كانت سرعة اندفاع دمائي المحمومة تفوق سرعة الصوت وتصيب حاسة السمع عندي بإغماءة طويلة .

خرج نعش أبي وأمي تولول وراءه .. ووراءه كثيرون .. و مرسي .... كنت وحدي لا أبكي أبي .. وكانت أصوات الأنين والنواح تأتي إليَّ وكأنها من عالم بعيد .. بعيد .. أبعد من أبعد مجرة .

طالت زيارات مرسي اليومية لنا .. زاد من توددة إليّ وازدادت سرعة جريان دمائي المحمومة عندما جاءت أمي «تزف» لي النبأ في كلمات متلعثمة .. باهتة .. لم أعد أشعر بشيء .. ماذا تريد مني؟ أن أختار؟

رحل أبي .. نام بعيدا في قبره .. فماذا يعنيني أن يكون مرسي .. أو .. غير مرسي .. زوجا لك .. المصيبة مصيبتك أنت .. تملكني نفور عنيف من أمي .. أيعقل أن يحل مرسي محل أبي؟

لكن نفوري منها لم يحجب إحساسا بالشفقة الثائرة عليها .. فهي ضعيفة .. ضعيفة الجسد إلى حدّ الهزال .. وضعيفة المعنى إلى حد الخرس .. ملامح وجهها الشاحب تنوء بقهر الإنسان منذ عُرف القهر .. لكن ذلك كله لم يخف مسحة الجمال الهادئ الذي كان قطعاً سبب زواج أبي منها .. لم أر غمامة الحزن في عينيها تنقشع إلا حينما كنت أطلب منها أن تتعلم القراءة .. كان هذا يحدث في المناسبات الكبرى .. عندما تطلب منّي أن أكتب خطابا لأسرتها .. كانت عيناها تتوهجان ببريق غريب وهي تردد بصوت يفضح - رغم خفوته - حماستها الشديدة وهى تقول : يا ريت .. يا ريت.

أجبتها بلا مبالاة لا أدري لها سببا: تزوجيه!!

تدفقت الدماء إلى وجهها الشاحب .. وكأنها عذراء في شرخ الربيع .. علت عينيها فرحة بلهاء .. مثل دموعها.

نظر مرسي إلى فتحة ثوبي .. رأيت اللعاب يسيل من عينيه وهما ترشقان نهديّ .. لسعت نظراته أحشائي فكدت أتقيأ صاح بصوت كريه:

- يا نادية .. أنت كبرت .. ولابد أن تراعي ملبسك!

وافقت أمي بنظراتها البلهاء .. انطلقت إلى غرفتي وكأنني ألوذ من لسعة جمر .. قلت لأبي .. مرسي يشتهيني .. ويمقتني .. نمت في بحر دموعي قبل أن أسمع ردّ أبي .. ولم أعد أثير الأمر معه مرة أخرى بعد أن توالت نظرات مرسي واللعاب السام يسيل منها .. صار يعثر كل يوم على حجة ليقترب من مقاطع جسدي .. اقفلي صدرك!! ثوبك ضيق عند ردفيك!!

السؤال الوحيد الذي قررت إعادته على أبي:

- لماذا يا سيادة المحاسب تزوجت بقروية بلهاء؟ انتظرت جوابه طويلا .. طويلا .. ولكنه لم ينطق .. فرحت فقد جاء دوره في العجز عن الردّ على «لماذا؟» أطرحها أنا عليه .. كانت شماتتي في عجز أبي عن الرد هي التعبير الوحيد عن ثورتي على أخطائه .. التي دفعتها دائما بعيدا عنه .. إذ اختار هو أمي .. فهي المذنبة .. وإذ اعتقد بنقائه أن مرسي طيب .. فمرسي هو «الشيطان الخبيث».

كم أحبك يا أبي .. وأنت تأتي كل مساء إلى فراشي .. حتى لو كنت معك قبلها بثوان معدودة .. تطبع فوق جبيني قبلة .. أمتلك معها الدنيا .. تشد غطائي عليّ .. تحميني .. تبذر في قلبي طمأنينة هادئة .. ساحرة .. تسحبني معها إلى أحلى وأروع عالم .. نفس العالم الذي لم تكلّ عن وصفه لي .. وتحسب له «حسابات» البشر .. والعمل .. والثروة .. ترسم بمعادلتك صورة زاهية لعالم الغد ظللت تحلم وتحلم .. وتركتني في الحلم .. لم نعد نحلم معا وأنا أسألك عن كل ما يطوف برأسي لأتأكد من عالم الغدّ في صورته الرائعة .. كنت أمسك فرحة قلبي بأصابعي وأنت تجيب على أسئلتي بثقة.

"عندك الجدول .. انظري فيه" كنت أغمض عيني بعد قبلتك على جبيني وتشد غطائي على صدري .. لأسافر في عالم حساباتك .. أراك تمسك "بالجدول" تتأكد من صحة "أرقامك" .. تسكنني فرحة غامرة.

هربت مني الأحلام .. أدار «عالمنا» ظهره لي وبقيت وحدي مع مرسي، ينهش قبرك بعينيه الشرهتين ونظراتهما خُلسة إلى صدري من وراء ظهر أمي وهي دائما كالأطرش في الزفة .. أثارني «طراشها» إلى حد الجنون .. أتراها تُدرك ما يدور بخَلَد مرسي؟ ولو أنها لاحظت شيئا ما .. فهل تريد أن تضحي بي وبك على مذبح لياليها مع مرسي؟ ربما هي لا تعرف .. ربما لم تلاحظ .. وتعود الحمى إلى دمي .. أقع في إغماءة نائمة والكرة الخانقة تنتفخ في صدري .. أحاول زحزحتها بسيل دموعي .. أغرق في وسادتي التي كثيرا ما حملتني إلى «عالم أحلامنا» .. أفقت مذعورة على طريق باب غرفتي .. قفزت من سريري في هلع وأنا أغطي جسدي كله .. انقبض قلبي بشدة وكأن يد مرسي الخشنة الكريهة تضغط عليه .. لاح لي من بعيد نذير مواجهة دامية .. صرخت بكل ذعري: من؟ أجاب مرسي بصوته اللامنتمي:

- افتحي يا نادية! ..

هبت عاصفة مجنونة في دمائي .. سرت رجفة محمومة في جسدي كله .. أشار لي أبي على السكين الذي أضعه قرب رأسي .. حملته .. هدأت حمى دمائي بعض الشيء .. توجهت صوب باب الغرفة وذعري يختلط بثورتي فلا أعرف أين يبدأ أحدهما لينتهي الآخر .. فتحت الباب بحذر بالغ .. اندفع مرسي علىّ يحاول احتضاني واللعاب يسيل من عينيه .. يحشرج بتمتمات غير مفهومة .. تتهشم في تقطّع أنفاسه اللاهثة .. عبارة واحدة تمكنت من الخروج غير مهشمة .. قال .. اعقلي يا نادية.

هويت بالسكين مرة .. قال أبي : ثانية .. هويت ثانية .. عاد أبي يطلب مني أن أهوى مرة ثالثة بسكيني على مرسي .. ثم .. ظللت أضربه كلّما انتقل أبي إلى رقم أعلى. ورجفة جسدي تهدأ .. وحمى دمائي تبرد .. وصرخات مرسي الهلعة الذليلة تعزف في أذني سيمفونية الخلاص.

لم أشعر متى اكتظ منزلنا بكل هذا العدد الهائل من البشر .. ولا متى دخلت أمي .. تعلقت عيناي بعينيها أبحث عن نظراتها البلهاء .. لكني لم أعثر لها على أثر .. تقدمت أمي نحوي تطلب مني السكين .. مددّت لها يدي .. قذفت بالسكين بعيدا .. ضمتني إليها بحنان غريب .. آسر .. شعرت لأول مرة .. أنني أحبها. أرحت رأسي على صدرها والمنزل يغشى بالمتفرجين .. غبت عن هذا كله .. رأيت أبي .. يمسك بجدوله .. ابتسامة معتذرة ترتسم على شفتيه .. تراجع اعتذارها شيئا فشيئا .. أخلى مكانه لفخر عميق .. عميق.

هدية بابا نويل

طغت فرحتها بثوبها الجديد على الفرحة المعتادة بهذه الليلة الكبيرة .. ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر التي مرت بها فايزة ستة عشر عاما من قبل .. بثياب جاد بها عليها آخرون! ليس هناك ما يمنع إذن من الاحتفال بالحدثين؛ ثوبها الجديد.. ومولد المسيح. رقص قلبها طربا وهي تحاول التستر وراء مظهر الخشوع الذي يتفق وجلال الذكرى .. لكنها ما تلبث أن تدور بعينيها في رحلة مقارنة بين ثوبها وما ترتديه الأخريات .. وانتهت إلى قرار حاسم: بأنها «عروس» الليلة توقفت عيناها في رحلة «المقارنة» أمام طفلة صغيرة يشبه ثوبها رداء المسيح الصغير الذي يتوسط مذود البقر .. كانت الصغيرة ترتعد بردا مثله سرت رجفة في جسد فايزة ونفذ «برد» الصغيرة إلى قلبها فبدا عاريا من «الثوب الجديد» .. لا بد أن الصغيرة التي تسجد في خشوع أمام «المسيح الطفل» تهمس بنفس الدعاء الذي همست به فايزة وهي في مثل سنها .. هكذا ركعت أمام مذود البقر تتوسل للمسيح الصغير أن «يتوسط» لدى .. «مبعوث السماء» حتى يتذكرها في جولة توزيع هداياه التي يغمر بها الصغار .. قالوا لها إنه ينفذ من ثقب الباب. تركت له باب حجرتهم الوحيدة مفتوحا على مصراعيه ليسهل عليه التسلل، كانت تظل ساهرة إلى أن يقهرها سلطان النوم ويغدق عليها عشرات الهدايا في عالمه الخاص الذي يولى مع خيوط الفجر الأولى .. عندما تفتح عينيها على يدين خاويتي الوفاض. فتذهب إلى الكنيسة لتنضم إلى فريق الصغر الذين انطفأ بريق ثيابهم منذ أمد بعيد، في أعينهم أماني وفي عيونهم رجاء وآثار احمرار لا تزال عالقة بعينيها .. ظلت رحلة العذاب تتكرر سنويا إلى أن أهداها اليوم أخوها

أول ثـوب جديـد ترتديـه في عمرهـا .. اعتـصر الألم قلـب فايـزة وهـي ترقـب همـس الطفلـة إلى المسـيح الصغـير .. أشـفقت عليهـا مـن رحلـة العـذاب التـي عكّـرت طفولتهـا .. ثـم خرجـت مـن بـين صفـوف المصلـين متجهـة نحـو الصغـيرة بخطـوات ثابتـة .. ودمعـة إشـفاق تترقـرق في عينيهـا وهـى تتسـاءل: هـل أقـول لهـا .. هـل أقـول لهـا إن «بابـا نويـل» لا يـزور الفقـراء؟

تل الزعتر

انتهى عبد الحليم حافظ من أغنية حب فاشل .. بعد موسيقى قصيرة. نشرة أنباء، المذيع يلتزم في أدائه «الموضوعية» فلا تتغير نبرة صوته وهو يقرأ أنباء تطور القتال بتل الزعتر .. غُصة خفيفة في قلبي تمحو آثارها خفة دم عادل إمام وأنا أتابع تمثيلية كوميدية له بالتليفزيون .. ذهبت للنوم بفراشي النظيف الوثير .. نسيت كيف كانت نومتي من قبل .. آه .. كان أشد ما يؤلمني قلة الغطاء شتاء .. كنت أتدفأ بأجسام إخوتي .. أحيانا كان البرد أقسى من دفء أجسامنا .. ظللت طويلا أحلم بالخبز للجميع وأحلم أيضا بالغطاء للجميع .. نبض قلبي لفلسطين .. عدت لتل الزعتر .. ضايقني حياد المذيع .. مددت يدي أتلهي بأخبار متناثرة في مجلة مرحة، ضحكت من رسم كاريكاتوري .. نمت شهرا .. طالعتني مصادفة أنباء تل الزعتر .. مذابح .. مقاومة .. بطولة .. بسالة .. فاشية .. يسار .. يمين .. نسار تُبقر بطونها .. تستنجد بالمسيح .. قالوا لهن : إنه يقف هناك .. على الطرف الآخر .. الأصوات والكلمات تتداخل .. سرت رجفة في عظامي .. وأنا أتساءل على بُعد آلاف الأميال من المخيم: أين يقف المسيح؟ كان مثلهم، يتدفأ في لحم أمه في بيت لحم .. مات بردا عندنا صلبوه بعيدا عنها .. ظهرت صورة بالتليفزيون .. كومة جثث لأطفال كان يمكن أن يلتفوا حول المسيح .. يدفئونه فوق الصليب .. يذيبون صلب مسامير يديه .. لم يتيحوا لهم الفرصة. كومة ساكنة لا تستطيع حراكا .. لا تسمع ولا ترى ..الشماتة والتشفي أو .. الاستنكار والعطف .. أو .. الثورة والرغبة في الثأر، يعد شيء يعني الكومة الساكنة. أصبح أمرها يعني الآخرين، يجب دفن أكوان اللحم خوفا من انتشار الأوبئة .. وربما أيضا لحرمة

الأموات .. هل المسيح يقف على الطرف الآخر حقا؟ قد يأتي يصحبهم إلى حيث دُفن هو نفسه .. سمعت أنه مثلهم ممنوع من دخول بيت لحم .. بل ومن فلسطين! حضرت اجتماعا لتأييد مقاتلي تل الزعتر والإشادة ببطولتهم .. فرغت الكلمات من مضمونها والصور تتوالى .. رءوس فصلت عن أجسادها .. عجوز بين حطام كوخه الصغير يبصق علينا نحن المشاهدين .. عصام أو عادل أو عمر ملقى في بحر دمائه .. يده تقبض بقوة على بندقيته .. يحتضنها .. يوصي بالرفق بها .. خرجت من الاجتماع ومطارق تدق رأسي .. ترقرقت دمعة في عيني .. قلت لصديقي: «أريد أن أنسى. لنذهب غلى بار الشيراتون. ونأخذ كأسين» عدت أضحك مع الأصدقاء الملتفين حول البار .. حمدا لله .. نسيت تل الزعتر وغابت صوره عن عيني .. نمت نوما هادئا لمدة أسبوع .. صحوت على عنوان صحيفة .. لا يزال المقاتلون يقاومون ببسالة .. دفاعا عني!! بكيت بصوت عال .. رجال المخيم يبكون بدورهم عليَّ .. خرجت إلى الشارع .. رحت أشكو للنيل .. سألته: من يبكي على من؟

صمت النيل كعادته الأزلية .. أدار صفحته وطلب مني توجيه سؤالي لمن يتكلمون .. الناس تسير على ضفتيه .. في أيديهم لب وترمس .. وأحيانا لا شيء .. البعض يتكلم والآخر لا ينصت .. صرخت صرخة مدوية .. تل الزعتر .. تطلع المارة إليّ بدهشة .. ابتسم نفر من جنوني ومنحني آخر نظرة إشفاق .. قال لي أبي:

- ضربني جند الأمن وكسروا ذراعي .. اشتركت في الإضراب ..

المشكلة قطع المرتب حتى تشفى ذراعه .. بكت أمي .. علا نحيبها .. وصبي البقال يسأل دفع دين الشهر الماضي .. كانت دموع امرأة المخيم مختلقة! .. أحزانها فلسطينية .. الرصاص أقسى من صوت صبي

البقـال .. المخيـم جزيـرة محاطـة بوحـوش ضاريـة .. وقفـت طبيبـة أمـام آلات التصويـر .. قالـت بنـبرة حاسـمة: «سـنقاوم وننتـصر». أخـذت أحلـل الكلـمات التـي طالمـا طربـت لقراءتهـا في سريـري المريـح .. «س .. ن .. قـا.. و.. م».أي سـنرد رصاص المعتدين بصدورنا .. و «س .. ن .. ن .. ت .. ص .. ر» .. سـتفنى الرصاصـات ونبقـى .. اطـمأن قلبـي .. حاولـت النـوم . . لم أنجـح .. شربـت كأسـا واثنتـين. هـرب نومـي مـع طلقـات البنـادق .. جريـت نحـو الحبـوب المهدئـة .. نمـت حتـى الصبـاح .. عـدت أتطلـع إلى وجـه المدينـة .. العثـور عـلى مقعـد بالأتوبيـس يشـبه الحـرب الصغـيرة .. تعقبـت رجـلا يعـدو للحـاق بالبـاص اسـمع: تـل الزعـتر، رفـع يديـه يطالبنـي بالكـف عـن الـكلام دون أن يسـتدير .. قـد يتمخـض اجتـماع الجامعـة العربيـة هـذه المـرة عـن شيء أكـبر مـن الفـأر .. رائحـة الخيانـة تزكـم أنفـي .. رائحـة البـارود تسـد حلقـي .. رائحـة بـولي وأنـا أتسـمر في مـكاني تشـبه رائحـة الخيانـة كل الروائـح تتشـابه وتجثـم عـلى صـدري. رأيـت نفـسي في عيـون كثـيرة حـولي لم تعـد الخمـر تشـفيها .. كُـسرت ذراع أبي وكُـسر عنقـه .. تحسسـت عنقـي في هلـع شـعرت بغثيـان قاتـل.

- الطريـق إلـى لبنـان محفـوف بالمخاطـر .. تتزحلـق سـيارات المسـئولين فـي الدمـاء التـي تغـرق الطـرق .. يـا تـل الزعـتر ، يـا تـل الزعـتر[٢] .. أجبنـي بحـق السـماء .. أجبنـي قبـل أن يخفـت صوتـك المـؤرق .. كيـف السـبيل إليـك؟

إني أتزحلق في بولي ودمائك فكيف السبيل إليك؟

٢ تل الزعتر: مخيمّ للاجئين الفلسطينيين في لبنان.

الاستدعاء

انخلع قلبي وعيناي تجربان فوق سطور « الاستدعاء» إلى مركز الشرطة .. نشطت خلايا مخي في كل اتجاه .. وفي أي اتجاه يمكنه أن يفسر ما بين هذه السطور .. وكل تفسير منها يجرني إلى دوامة عاتية .. عصفت بي الأحاسيس المجنونة في محطاتها المعتادة .. الهلع الذي يجمد الدماء في أوعيتي بمختلف أسمائها وأحجامها .. القلق الذي ينخر أحشائي كالسوس .. سنوات عديدة وهو ينخر أحشائي .. سنوات لا أدري إن كنت أحسبها بالحسابات الرسمية المتعارف عليها .. ورقة من أوراق التقويم تُنزع لتحل مكانها أخرى .. جديدة .. أم تراني أحسبها بالعذاب الذي عشش بين ثنايا الجسم والروح .. وأطال اليوم الواحد إلى أكثر من عام؟ تعالت الأصوات المجنونة داخل صدري .. خيل لي أن جاري الذي يلقى نظرات سريعة هادئة .. على بريده .. يسمعها .. الضمان الوحيد أنه لن يفهم العربية .. ماذا تخبئ لي سطور «الاستدعاء» .. هل تُجدد إقامتي؟ .. إن مجرد خاطر رفض تجديدها يلهب رأسي بالحمى .. يبعث الرجفة في عظامي .. أعرف .. سأطالب من جديد باعتصار شتات الذاكرة .. استدعى منها ما هو أهم من «بيانات» هُويتي الرسمية .. أفتش في أعماق الذكريات المهترئة .. انتزع من أشلائها ما «اهترأت» لإطوائه .. زملائي .. في المراحل كلها .. الابتدائية .. الثانوية .. الجامعة .. العمل .. في السجون .. في النزوح إثر النزوح .. في الرحيل .. ستعود الحمى تنهش لحمى تغوص سكاكسن حادة في دروب النفس .. أرد بإعياء على أسئلة صاحب المكتب البيضاوي في غرفته الباردة .. بفرنسية ركيكة يقلب معها شفتيه امتعاضا .. تُرص أمامه تلال من الملفات .. أنا واحد منها .. وهو وحده صاحب القرار .. ابقَ .. ارحل .. ادرس ..

اعمـل .. أتنفـس فـوق أرض «الحريـة» .. أرض الغربـة والاغـتراب .. «صـار لزامـا» تنظيـم الهجـرة أولاً. قالـت بعـض الأصـوات: كان الخـراب الاقتصـادي.

ارتعدت فرائصي .. آه لو كانت همومي اقتصادية!! التهبت ذرات عقلي وقلبي وكأن بركانا من الحمم انفجر فيهما .. الصور تتلاحق .. زوار الفجر يداهمون نومي .. في سريري .. تحت جلدي .. أنهض مذعورا متمنيا أن أكون في كابوس ثقيل .. تموت الأمنية وهو يملون غرفة نومي يحملون ملامح «بشرية». لكل منها عينان .. وأنف وأذنان يقفون مثلي ومثلك على رجلين يرتدون .. ربما مثلي ومثلك ملابس أوروبية .. متحضرة .. يشدون – كأنهم في فيلم أمريكي – رباط عنقهم قبل لحظة الانقضاض ينزعونني من جلدي.

- قم ..

أسأل مبهوتا وقد انعدمت كل الأحاسيس .. حتى الخوف ..

- ماذا ماذا جرى؟

لم أفـق إلا عـلى نحيـب أمـي في ركـن منـزو بالغرفـة .. هتفـت عيناهـا بتـضرع حزيـن: «الحكمـة يـا بنـي .. إنهـا أول زيـارة لـك .. اسـألني أنـا .. فكـم سـبقت .. «المعرفـة»؟!.

عـدت إلى أمـي بعـد عـدة أشـهر .. نصـف رجـل نصـف إنسـان .. أقسـمت ألا أبقـى .. فـوق هـذه الأرض .. أن أبحـث عـن قطعـة حصنهـا اللـه مـن زيـارات الفجـر الملعونـة. صرخـت أمـي وكأنهـا في مأتمـي اسـتحلفتني بـكل موتـاي وأحيـائي أن أبقـى إلى جوارهـا خذلـت دموعهـا "إصراري" عـلى الرحيـل ضعفـتُ أكـثر أمـام أحـلى ابتسـامات في الدنيـا ترتسـم في عينـيّ ناديـة .. كان لأيامـي معهـا مـذاق الشـهد .. ضمـدت ابتسـامتها العذبـة جـروح نفـسي .. قالـت: شـفاهنا أحـلى كلام قبـل أن تـذوب في قبـلات لهـا

طعـم الجنـة .. احتـد نـداء جسـدينا .. تحمّلنـا بالعافيـة زغاريـد الفـرح لـنروي ظـمأ كل منـا للآخـر .. عـاد شـوقي لـلأرض والنهـر والأشـجار ازداد عشـقي لنسـيم العصـاري .. لليـالي رمضـان والمسـك الـذي يعقبهـا .. إلى صـوت الأذان وأنـا أعانـق كل فجـر بشـوق أكـبر، تنطلـق أجـراس الفرحـة في نبضـات قلبـي وأنـا عائـد لهشـام، يحلـق بي رنـين صوتـه إلى أعـلى سـماء وهو يزغـرد بكلمـة بابـا .. صدّقـت أن حلمـه سـيدوم أن الأخطـار غفلـت عـن جنّتـي الصغـيرة عـن مملكتـي التـي فيهـا دنيتـي، لا أعـرف كيف استسـلمت لأحلامـي الورديـة أو .. لأيـة أحـلام كانـت؟ لم يصدقنـي زوار الفجـر وأنـا أقسـم بأغلـظ الأيمـان .. أننـي لم أعـرف .. وحتـى لم أسـمع .. بالمظاهـرة التـي كانـت تنـوى تنظيمهـا "عنـاصر عميلـة مندسـة" ركلنـي أحدهـم بوحشـية لا تنسـجم مـع تأنقـه المبالـغ فيـه .. تقيـأ سـيلا مسـموما مـن السـباب تنافسـت كلماتـه الجارحـة الوقحـة قبـل أن يـصرخ كالمسـعور:

- يـا ابـن الكلـب .. تنكـر أنـك نكّـت عـلى معجـزات الحـزب والثـورة في جلسـة بالمقهـى الأسـبوع المـاضي تنكـر أنـك همسـت بآخـر نكتـة لأمـك الـــ .....

انتابنـي غثيـان قاتـل .. اختلسـت نظـرة إلى هشـام وقـد تكّـور جسـده الصغـير المتجمـد .. خلـت عينـاه مـن أي أثـر لملامـح الحيـاة إلا مـن دموعـه المتحجـرة في مآقيـه .. هالنـي عـذاب «الرجـل» في عينيـه الصغيرتـين تمنيـت لـو انشـقت الأرض لتبتلعنـي .. برقـت عينـاي بحقـد محمـوم .. مـاذا لـو هجمـت عليهـم .. أقتلهـم .. أو يقتلوننـي؟! .. تسـمرت في مـكاني وأنـا أحـصي الرشاشـات والبنـادق والمسدسـات والأجهـزة التكنولوجيـة الحديثـة التـي تحملهـا فرقـة فجـري .. تُـرى كيـف يكـون إحسـاس جنـدي "مـن الأعـداء" لـو وجـد نفسـه محـاصرا بمثـل مـا أنـا محـاصر بـه؟ ابتلعـت كبريـائي بصعوبـة ابتلعـت بصعوبـة أقسـى نظـرة الخيبـة في عينـيّ هشـام خرجـت

معهـم منكـسر القلـب .. والـرأس.

عـدت إلى نادية وهشـام لم أعـرف بعـد كيـف أحسـب فـترة بعـدي عنهـما؟ تسـللت الغربـة حتـى أعمـق أعماقـي .. حاصرتنـي داخـل مملكتـي ودنيـاي .. وجوههـم في كل ركـن تحـصي مـرات شـهيقي وزفـيري تفتـش في همـسي .. ماتـت الهمسـات في حلقـي .. اغتربـت عينـاي وتاهـت نظراتهـما .. لبسـت الأشـجار جميعهـا ثـوب حـداد قاتـم .. أصبـح الخـوف تـوأم روحـي .. عرفـت لأول مـرة أن للخـوف بدايـة .. لكـن نهايتـه بعيـدة .. بعيـدة – ليـس هنـاك مـن أدركهـا بعـد – بكـت سـماء بـلادي في مأتـم روحـي . . كان الـشرخ أكـبر مـن دواء. وافقتنـي نادية عـلى البحـث عـن سـماء جديـدة .. قبـل أن تحـاول القيـام بمظاهـرة جديـدة «عنـاصر عميلـة مندسـة، ثبتـت علاقاتهـا بالصهيونيـة والإمبرياليـة الأمركيـة والطابـور الخامـس والحاقديـن مـن أعـداء الشـعب والأمـة العربيـة».

فقـد لا يسـعدني الحـظ هـذه المـرة بالخـروج بعـد ثبـوت «بـراءتي» وإقناعـي بـأن «الثـورة» تعمـل لصالـح الشـعب ولابـد أن تحصـل .. «أحيانـا» تجـاوزات وأن يتعـرض في حـالات «نـادرة» للظلـم .. مواطـن .. أو أكـثر ومـا أهميـة ذلـك في سـبيل اسـتمرار المسـيرة؟

تسـارعت أنفـاسي وأنـا أعيـد للمـرة المائـة قـراءة سـطور «الاسـتدعاء» هـل أعـود ثانيـة لنظـرات تشـيع في أوصـالي رجفـة المـوت؟ إلى نظـرات هشـام الخائبـة وأنـا أنـوء تحـت كعـوب البنـادق في سـاحة حـرب خبيثـة .. تقـول سـطور «الاسـتدعاء»: يُرجـى تواجدكـم في الثامنـة والنصـف صباحـا في مركـز الشرطـة التابـع للحـي .. أمـام خانـة الموضـوع: الإقامـة.

غـدا «تتعلـق أنفاسي وعيناي بشـفتيّ صاحب المكتـب البيضاوي في غرفته البـاردة .. غـدا» قد أعـرف موقع «الأزمة الاقتصاديـة» في قائمة الأعداء.

السرطان

أطل المذيع برأس ينم على أهمية الحدث .. دعوة في عينيه بأن نصغي إليه ولو هذه المرة فقط .. بشيء من الجدية .. قال في صوت عميق .. برجاء يشبه الاستغاثة:

- تبرعوا بأموالكم لحملة القضاء على السرطان!!

ظهرت صورة طفل جميل يحتضن الحياة بابتسامة بريئة ساحرة.

قال المذيع:

- اصنعوا مستقبلا لأطفالكم يخلو من السرطان المميت.

رنت ضحكة الطفل تتحدى كآبة الموضوع وتشير نحو شعاع من أمل .. سقطت «الكلمة» مع ذلك قنبلة تفجرت بداخلي وتركتني أشلاء .. هربت دمائي من مسام جسدي المقشعر .. كاد ألم الرعب يفتك بخلاياي التي قد تهمد موتا .. بالسرطان .. لم أفكر بأن للموت أسبابا شتى . . وأنه آت لا ريب فيه .. قضي على السرطان .. أم لم يقض عليه .. حاولت التدخل «بخفة دم» أبدد الوجوم الثقيل .. قلت:

- ليبدأوا بعلاج الأنفلونزا!!

لم يعرني أحد أدنى اهتمام .. العيون مشدودة إلى الأمل الذي قد يمكن شراؤه .. عدت «مرغمة» إلى السرطان .. سمعت ضحكة ساخرة بداخلي «الدوام للدائم .. أما أنت .. فبالسرطان أو بغيره» .. شعرت أنني أغمس لقمتي في السم .. مددت يدي بعصبية إلى علبة سجائري

.. تذكـرت يـوم رحـل صديقـي إلى الجبهـة .. قـال لي:

- لابـد أن نتخلـص مـن السرطـان الـذي ينخـر في جسـد أمتنـا .. هكـذا قالـت كافـة الإذاعـات والتليفزيونـات بالعربيـة الفصحـى .. ودعتـه بدمعـة حنـان .. همسـت:

- ستقضون على السرطان .. وتعودون سالمين.

ضحك قائلا بهدوء:

- هو الموت .. اليوم أو غدا .. ما الفرق ؟

قلت في هلع وكأنني أقنعه بالحياة:

- الفرق أن تشهد الانتصار!

ردَّ وضحكته لم تتغير:

- لتشهديه أنت وغيرك .. ولأمت مستريحا!

لم يعـد صديقـي الحبيـب .. بكيـت بحرقتـين .. مـرة لأنـه لم يعـد .. ومـرة لأن السرطـان بقـي وتوحّش.

لا يـزال المذيـع يسـهب في شرح مزايـا التـبرع للقضـاء عـلى الـداء الخبيث .. قـال طبيـب يشـارك في الندوة:

- لا تـزال الجراحـة أفضـل سُـبل العـلاج .. شرط أن تُجـرى في الوقـت المناسـب وإلا .. كان لابـد مـن بـتر الأعضـاء .. واحـدا .. واحـدا .. دون جـدوى .. شـهدت الدمـاء حـارة تتدفـق مـن كل الجـراح .. اختلطـت أصـوات «قضـاة» محاكـم التفتيـش .. تهـذي هذيانـا مقيتـا .. «الشـيوعيون عمـلاء

.. القوميـون خونـة .. البعثيـون فاشـيون .. الوفديـون رجعيـون .. الـــــ «.

نخـر طنـين المطـارق في عقولنـا .. تاهـت الوجـوه وبهتـت الملامـح .. رأيـت تماثيـل تُحطـم وأخـرى تقـام عـلى أشـلائها .. اختلطـت أكاليـل الغـار بسـيول البـول ورائحتـه الكريهـة .. تسـاءلت .. «مـن سـيذهب إذن لإجـراء الجراحـة وإزالـة سرطاننـا ؟».

جثـم عـلى صـدري صـوت رئيـس .. مـن مقعـد العـرش .. يلقـي «شـعراً» عـلى فـراش مـوت المجروحـين والجرَّاحـين .. يلقـي «بالحـل» «مـن عصـا مارشـاليته» لنـترك «الحقـد؟» وننعـم بزقزقـة العصافـير!!

ارتفـع نحيـب العصافـير رداً عليـه .. عـلا نواحهـا يـرثي الغنـاء .. امتزجـت أصواتهـا في سـيمفونية حـزن جليل.

قلـت للرئيـس «الشـاعر» .. اذهـب إلى الجحيـم .. هـو لا يفـرق بـين النـواح والزقزقـة.

كرهـت نفـسي وأنـا أنصـت لصـوت المذيـع يتحـدث بالفرنسـية .. كرهـت أنفـاسي اللاهثـة وأنـا أصعـد درجـات سـلم مـترو الأنفـاق، ثـم أعـود وأهبـط لأسـتأنف صعـود درجـات أخـرى .. في بطـن الأرض كالآلـة المبرمجـة .. كرهـت شـعوري بالوهـن وأنـا لم أُصـب بعـد بالسرطـان إلا مـن خـارج جسـدي.

سألت صديقي الطبيب:

- كيف ينخُر السرطان الخارجي في أرواحنا؟

رد باقتضاب:

- لا فرق بين سرطان وآخر.

التفت نحو ابني الصغير:

- يعني إيه سرطان؟

ضحكت أخفي حيرتي.

استدرت نحو صديقي الكاتب .. عيناه لا تفارقان وجه المذيع .. قلت:

- هل سنعيش حتى نرى الأمل يتحقق؟

ردَّ بهدوء مثير .. وكأنه يتعمد إغاظتي بهدوئه:

- لو فكر الكل مثلك ما حصل تغيير في التاريخ .. ولا قامت ثورة!

اختنق حلقي بالدموع .. لو أموت نصف موت .. لأشهد بنصف الحياة .. الانتصار؟!

صاح شاب ثرثار:

- لم نُبلَ بسرطان واحد .. اسمعي .. يقول المذيع: السرطان متعدد الأنواع.

قلت كالخلط بين النواح والزقزقة:

- لم يسمعني .. استدرت نحو عصفور صغير كان يتابع المشهد .. رأيت دمعة تنحدر من عينيه الصغيرتين؟؟؟!

الكابوس المعدني

مثلما يحدث في أفلام السينما .. كابوس واحد يتكرر .. قد تفصل بينه أيام .. أو أشهر .. وربما سنوات أحيانا .. كابوس واحد كان يطاردني منذ بدأت عملي في هذه الإذاعة .. كابوس يفزعني .. يطرد النوم من عيني ويفتحهما جليا لأتحقق بعد إشعال الضوء أنني في الثالثة صباحا .. أو في الثانية عشرة التي ينتصف بها الليل .. وأنني في سريري .. في ساعات «عدم العمل» وكابوسي اللعين يحمل دائما نفس ملامحه المزعجة .. «إنني محشورة .. في مكان ما .. ولم يبق سوى دقائق على موعد إذاعة موجز الأنباء» .. قد لا يصدق البعض أنني لا أرتجف هلعا من العقوبة التي أستحقها لتغيبي عن موعد « موجز الأنباء» .. وأن قوة زلزال الكابوس اللعين .. وبدون أية رتوش تجميلية .. تكمن أساسا في إحساسي بالالتزام إزاء «الواجب المهني» وأن أية عقوبة قد تلحق بي لا تعادل جزءا يسيرا من تلك التي أوقعها أنا بنفسي لو قُدر - معاذ الله - لهذا الكابوس أن يتحقق!! إلى أن كان اليوم المجنون، عندما تقرر إضراب عام في مدينة النور، توقفت معه أو كادت جميع وسائل النقل العام. واتُخذ القرار وأنا «آكل الأرز مع الملائكة» .. وفي ليلة طافت بي في أحلام وردية .. نزلت من بيتي في أقصى جنوب باريس الغربي، لأستقل المترو المريح إلى إذاعتي العزيزة في أقصى الشمال الشرقي للمدينة .. وقفت مشدوهة لا أدري ما أفعله أمام الواقع المرّ .. إذ لا مترو ولا يحزنون!! حاولت أن أطمئن نفسي .. قلت: الأمر بسيط .. لأبحث عن تاكسي .. عبثا ذهبت جهودي واستغاثاتي .. بدأت حبات العرق تتساقط من جبهتي بينما الثلج يتساقط بغزارة في يوم من أيام ديسمبر .. أخذت أعدو بكل قواي أبحث عن كابينة هاتف أتصل فيها بالإذاعة

وأبلغهم بالموقف .. أيضا ذهبت جهودي هباء .. وشعرت لأول مرة بسخط عارم على مخربي أجهزة الهاتف طمعا في «القروش» الفرنسية القليلة في جوفها .. أخذت أتوسل بعيني المذعورتين لسائق تاكسي. توهمت لأول وهلة أنه «هدية من السماء» نظر إليَّ شزرا وأبعدني بإشعاع عينيه الصاعق .. إنه لن يغامر بالدخول في هذه الغابة المعدنية وكأن جميع سيارات فرنسا تجمعت هذا اليوم في باريس .. يد ثقيلة تطبق على عنقي .. ما أقسى الكابوس بين الحلم والواقع .. أعني .. ما أكثره قسوة في الواقع .. إنني الآن لا أستيقظ مذعورة ليتبدد هلعي بعد ثوان من إشعال الضوء وإنني لم أخل بواجبي ولم أكن في الطريق ولم يبق من «الزمن» إلا دقائق على موجز الأنباء .. إنني في الشارع فعلا .. تفصل بيني وبين الإذاعة عشرات الكيلو مترات .. لا حول لي ولا قوة .. وبينما أكاد أهوى من فرط اليأس أخذت أستنجد بكل ما أحفظ من تراث الدعوات .. وشعرت وكأن أبواب السماء فتحت .. توقفت سيدة فرنسية ودعتني للركوب معها .. قالت: إنني مستعدة للتقدم بك حتى الحيّ اللاتيني.

رحبت ترحيبا بالغا بالعرض الكريم .. قلت في نفسي: إنها تقربني مسافة على أية حال .. وهناك يحلها ألف حلّال.

اختلست المرأة نظرات خاطفة إلى ملامحي المهتزة .. رثت لحالتي .. سألتني أين أعمل؟ أجبت بيأس .. وإذ بها تقول بنبرة حاسمة وكأنها اتخذت قرارا لا رجعة فيه .. سأوصلك إلى مكان عملك.

تلعثمت بكلمات الشكر لها .. وشكرت السماء مائة مرة .. تركتها تقود سيارتها وسط الغابة المعدنية .. وأنا أعيش «كابوسي» بكل أبعاده .. كررت النظر لساعة يدي وهي تلدغني بالإنذار .. باق من الزمن

نصف ساعة .. ثلث ساعة .. ربع ساعة .. كدت أغيب عن الوعي لفرط هلعي لولا انتشلني صوت المرأة وهي تقول والفرحة تملأ قسماتها: الحمد لله.

رددت معها الحمد لله ألف مرة .. بحثت عن كلمات أشكرها بها لا يدرك معناها إلا من خاض تجربتي الكابوسية .. أسلمت ساقيَّ للريح باتجاه الإذاعة وكأنني أهرب من طائرة هيليكوبتر تطاردني .. دخلت المبنى ودقات قلبي تسبق ضجيج محركات الهيليكوبتر .. نزلت ابتسامة زميلي على قلبي بردا وسلاما .. وقال: لا تقلقي .. كنت هنا وقمت بعمل اللازم مكانك!!

أبطل زميلي العزيز مفعول كابوسي اللعين .. تمتمت بعبارات شكر ظننت أنها غير كافية .. انقضى يوم عملي .. بعد ظهر اليوم المجنون .. وبدأت خيوط الضوء واهنة .. تستعد للرحيل من فرنسا مع الشمس التي تغادر لبلاد أخرى وتتركنا هنا نحل مشاكلنا مع الظلام الداكن .. في الخامسة من بعد الظهر .. كانت رحلة العودة .. وجنون هذا اليوم الباريسي الفريد قد أبلغ أوجه .. سيارات أكثر من المارة .. وراكبو هذه الآلات السحرية يتخندقون وأيديهم على زناد الرفض!!

شعرت بالغرق في مأزق عميق .. انتبهت إلى «حجم الخوف» الذي يخرج من مسامي ليترك مكانه لخوف أكبر .. بدأت أرتعد لفكرة الركوب مع شخص، ربما يخبئ لي ما هو أشد وأنكى من المشي سيرا على الأقدام حتى طرف باريس القصي .. تدور عيناي بحثا عن سيارة تقودها امرأة .. تكون بها عائلة .. أو على الأقل زوجان .. خابت حساباتي الاحترازية .. كان الرفض يلطمني في كل مرة .. كان «الخوف» هو الرسول الوحيد بيني وبين أصحاب السيارات.

هـم يخافـون ملامحـي العربيـة بدورهـم .. يوصـدون في وجهـي أبـواب الأمـل في مسـاعدتي عـلى لقـاء بيتـي .. طالـت رحلتـي أكـثر مـن ثـلاث سـاعات .. وأنـا أتأمـل «الخـوف» الـذي لبسـني ولبـس أصحـاب السـيارات .. وصلـت إلى نقطـة قريبـة مـن الحـي الـذي أسـكنه بعـد جهـد خـارق .. دخلـت بيتـي وكأننـي مـن عـالم غريـب .. لم أعرفـه مـن قبـل .. سـالت دمعـة حـارة مـن عينـي .. تعاملـت لأول مـرة .. لسـاعات لا تنتهـي مـع «الخـوف» .. لكـن الخـوف «المتبـادل» كان جديـدا عـليَّ .. تضـاءل معـه «كابـوسي اللعـين» بـأن دقائـق معـدودة تبقـى عـلى موعـد موجـز الأنبـاء .. وأنـا محشـورة في مـكان مـا .. بعيـدا عـن الإذاعـة .. وهـذه المـرة .. كان الضـوء مشـتعلا.

شمس الحصاد

سالت دموعي غزيرة كنهر النيل .. ساخنة كقطرات الحديد المنصهر في فرن عال عندما قال لي هامسا:

- نعم .. قررت السفر إلى الخارج .. قررت الهرب من ترددك يا حبيبتي .. سأهرب من عينيك إلى دنيا الله الواسعة .. الواسعة.

ضاقت الدنيا الواسعة حتى كادت تخنقني .. أطبقت على جسدي تكاد تعتصره .. ارتميت لآخر مرة بين ذراعيه دون أن أنبس ببنت شفة .. جفّت دموعي كما تجف مياه النهر في أشهر القفر اللاذعة .. وخفت حرارتها كقطرات الحديد المتجمد عندما يتعطل الفرن العالي .. يوم بيوم .. ست سنوات كانت عمر فراقنا.

قامت الدنيا وقعدت لحبنا .. قالوا وقالوا .. فروق اجتماعية .. فروق ثقافية .. محافظة .. تقاليد .. اقتصاد .. قام كل بدوره ليفرق بيننا، ظلت الدنيا .. الواسعة .. الخانقة .. حياة .. مجرد حياة أتنفس فيها برئتي فحسب .. آكل لأتنفس في اليوم التالي .. ملأ عيني فلم أر غيره .. خلت الحياة إلا من ملامحه الحبيبة وعطر أنفاسه الدافئة .. ظل ساكنا ضلوعي طوال ست سنوات .. مرت لحظة بلحظة .. وثانية بثانية .. وأنا أعي فراقه وأحسه كأقسى ما يكون الفراق .. رفضت كل من تقدم لي ولأنني «غير مقتنعة بالزواج لمجرد الزواج» لم أعبأ بصراخ الأهل وكلام الناس؟ تحمّلت تعليقات صديقاتي الجارحة: «يا عانس الشلة» .. فضلت أن أظل عانسا على أن يلمسني غيره .. هربت من جحيم العيش مع كائن لا يعرف أن قلبي ملك لحبيب الهارب إلى دنيا الله الواسعة .. تلك الدنيا التي ضاقت عليَّ إلا من ذكراه الحبيبة

.. وبعـد سـت سـنوات مضـت عجـاف كسـنوات حلـم يوسـف .. رفعـت سـماعة التليفـون لأجـد صوتـه وكأنـه كان معـي دائمـا .. دارت بي الأرض في أحـلى دوار .. قـال: «تعـالي .. أنتظـرك بجـوار النهـار».

ألقيـت بسـماعة التليفـون وهرعـت بخطـوات أسرع مـن أسرع تاكـسي .. ارتميـت بـين ذراعيـه .. عـاد إليَّ طعـم الحيـاة .. فاضـت دموعـي غزيـرة كميـاه النهـر في أشـهر الخـير .. سـاخنة كحـرارة الشـمس في أشـهر الحصـاد .. قلـت لحبيبـي:

- سـنبقى معـا في دنيـا اللـه الواسـعة .. مـا دامـت دنيـا اللـه .. واسـعة!

وهم

جلست القرفصاء تتلفح بغطاء ثقيل من الصوف، ونور طفيف ينفذ إلى الحجرة، نور رمادي بلونه الداكن الجدران، والسماء في ديسمبر. الغيوم تتكاثر، وعايدة تراقبها من خلف زجاج النافذة، وكأنها تتراكم بلونها الرمادي الداكن فوق قلبها. قالت هامسة:

- يارب !

اختلط الدعاء بتنهيدة حارة تحاول أن تنفس بها عن الغيوم التي تجثم فوق صدرها، تحاول أن تتشبث ببارقة أمل أبعد من الأفق ذاته. لقد تأخرت يوما، وربما كان هذا المغص مجرد وهم !

تكاد تهم بالابتسامة لهذا الخاطر المجنون. ولكن، سرعان ما تجهض الابتسامة ذكرى شهور عديدة. تأخرت فيها أكثر من يوم، ثم كانت تأتي في كل شهر .. في كل شهر .. واختنقت الابتسامة:

ألا تستطيع التغيب تسعة أشهر .. يتحقق بعدها أثمن أمل في حياتي؟

واشتد المغص حتى كاد يفتك بأمعاءها، و"الأمل " يغوص من جديد لكن ليست هناك ظاهرة ملموسة بعد. وربما كان المغص مجرد وهم، نعم ربما. وما أكثر الذين يمرضون بالوهم. لقد تأخرت يوما. لعلها تغيب وتغيب. كم أتمنى ذلك .. فقط تسعة أشهر .. فلست أتعجل مجيئها. بل أعرف سلفا. أعرف تماما ما سوف يحدث، سيعود من عمله بعد ساعات يسألني بلهفة وطيف أمل في عينيه:

- هل جاءت؟

ليتها لا تأتي. فلا أخجل وأنا أجيبه والحسرة تملأ قلبي.

- نعم.

تُرى .. لماذا أخجل كل هذا الخجل، وأنا أجيب عن سؤاله؟ وكأنني حملت سفاحا، فأرخى عيني حتى لا يطفر منهما ذلك اللهيب الذي يحرق وجهي. ليتني حملت، حتى سفاحا، لتهدأ بذلك تلك الرغبة العارمة التي تحرقني شوقا بأن أضم هذا «المجهول» الذي أعبده .. إلى صدري .. أي .. ربما كان هذا المغص .. وهما !

دنت منها نظرة ملتاعة إلى سرير طفل. كان ضمن أثاث البيت .. ابتسمت ابتسامة مُرة. انتقت يومها فراشين لسرير طفلها. الأزرق للولد. والوردي للبنت. صممت على الفراشين، رغم دعابته المحتجة «لا». أقسمت أن يكون الأول أسدا. صرخت صرخة مشروخة. استغاثت من الطعنات التي تنهال عليها:

- آي .. ربما كان هذا المغص وهما !

الأول أسد ! يا إلهي .. الشريط المروع يمر أمام عينيها واضحا. الصور لا تهتز، هي أملي، كل شهر. الكلمات حادة كسكين «عقبال ما نفرح بعوضكم !». النظرات أقسى أحيانا من سن السكين. نظرات اتهام في عينيّ والدته، رغم مسحة الرقة فيهما. نباح الكلب الصغير الذي دخل له يوما: « قلت يسلينا». جذبت الغطاء الثقيل الذي لا يشعرها – رغم سمكه – بالدفء. البرودة تخترق الضلوع. تحاول أن تنفذ إلى القلب لتنزع منه الحياة.

هـو ليـس قويـا حتـى يمنـح الحيـاة لحيـاة جديـدة. تدخـل البهجـة عـلى حياتـه. وسـيعود يسـألني مـن جديـد .. وأذوب خجـلا وأنـا أقـول: " نعـم " !

ربمـا تغـير ردّي هـذه المـرة. ربمـا كان المغـص .. مجـرد وهـم ويـأتي الأمـل الحبيـب، ويمـلأ المنـزل ضجيجـا، فقـد سـئمت هـذا السـكون المطبـق .. الكئيـب. ويمـلأ المنـزل دفئـا، فقـد أعيتنـي تلـك البـرودة الجامـدة. ويجعلـه يبتسـم، فلـم أعـد أقـوى عـلى احتـمال نظرتـه وأنـا أجيبـه « نعـم» أكررهـا منـذ عـشر سـنوات. مـرت ثقيلـة، وكأنهـا قطـار طويـل يمـر فـوق جسـدي. يـكاد لا يـترك منـه حتـى الحطـام، حطـام قلـب ينـوء بحملـه الكبـير مـن الحنـان. يتمنـى بـكل دقـة مـن دقاتـه أن يضـم قطعـة منـه. تنبـض بنفـس الدقـات، ويجـري في عروقهـا مـا يجـري في عروقـه !

عادت تصرخ بقوة يائة:

- آي .. ربما كان المغص. وهما !

تكـورت عـلى نفسـها قبـل أن ترفـع رأسـها في إعيـاء. ألقـت نظـرة عـلى وجههـا الشـاحب في المـرآة .. خيـل إليهـا أن المـرآة تعكـس وجهـا آخـر ليـس وجههـا؛ وجهـا ذابـل العينـين. بـدأت التجاعيـد تشـق طريقهـا إليـه بثقـة، متحديـة أعوامهـا التسـعة والعشريـن .. شردت بعيـدا إلى أبعـد مـن الشـهور التسـعة وسـمعت النـداء الحبيـب: " ماما " .

حـدة المغـص تـزداد، والنـداء يبتعـد رويـدا .. رويـدا، كلـما ازداد المغـص واختفـى مـع صرختهـا:

آي .. ربما كان المغص وهما!

دق قلبهـا بعنـف حتـى كاد يتوقـف. تجمـدت أطرافهـا، والـبرودة تنتقـل

بسرعـة محمومـة بـين ذرات جسـدها المنهـك. طفـرت دمعـة مـن عينيهـا مـع أول قطـرة. بـددّت .. الوهـم .. صعـدت الدمـاء حـارة إلى وجنتيهـا، وكأنهـا نـار .. أشـعلها الخجـل مـن جثـة بـاردة.

إجازة زوجية

اندفعت الدموع إلى مقلتي .. ربّت حبيبي على كتفي «واثقا» أنها دموع الفراق .. طالبني قلبي بعدم « التسرع بالحكم عليه بالجحود».. أو محاولة التشكيك: ألن يعود زوجي .. حبيبي .. بالسلامة، بعد رحلة رائعة؟ استقرت ابتسامة راضية على شفتي لهذا التفسير المريح .. قفز قلبي فرحا بحرية .. انكسر « القيد» مع إقلاع الطائرة .. أخيرا، وبعد عشر سنوات أحصل على « أول إجازة زوجية» .. شهر بطوله سأتحرر من كل شيء .. لن أجري مهرولة في الشارع حتى أتمكن من إعداد الغداء في موعده .. قد أتناول « سندويتشا» في الطريق العام .. أعد طعاما أو لا أعد .. لا أزور المطبخ إلا عندما يحلو لي .. لن ألقي نظرة على أية أزرار تنقص قمصانه .. شهر بدون حساب .. الحقوق والواجبات .. التزامات الزوجة .. مشاحنات تبدأ بمشاكل الشرق الأوسط والنظام العالمي الجديد وتنتهي باستهلاك الكهرباء وفاتورة التليفون .. مناقشة « مثقفة» عن الغيرة.

- أنت تغارين !

- أنا ؟ مستحيل !

ابتسامة ساخرة .. تغيظني .. واثقة أنني أغير فعلا .. تضبطني متلبسة بمحاولة مضنية لابتلاع فتاة جميلة تقف في حلقي .. تنحشر فيه .. تمنع عني الهواء.

أعرف صداقات الرجال البريئة فكلها صداقات لا تخلو أبدا من تعليقات « بريئة ! « ..» ظريفة ناهد .. صدرها يجنن .. لطيفة زينب ..

عيبهـا رجليهـا !» أصرخ أحيانـا.

- عمري ما علقت لك على شارب رجل !

أف .. ذلـك كلـه يتوقـف منـذ الآن ولمـدة شـهر .. اختلطـت دمـوع ألم الفـراق بدمـوع فرحتـي لحصـولي عـلى « الحريـة» .. قلبـي يواسـيني .. سـيذهب حبيبـي إلى رحلـة رائعـة .. يتجـول فيهـا بـين ربـوع أوروبـا وروابيهـا .. وأنطلـق أنـا مـن عطـش عـشر سـنوات في شـوارع القاهـرة ..أعانـق بشـوق بالـغ .. حريتـي !!

***

ثلاثـة أيـام مـرت عـلى فـراق حبيبـي .. كنـت مريضـة؟ .. أصبـت بـبرد في المطـار لعـل «مـرضي» هـو سـبب إحسـاسي بالضيـق .. لم أبـرح المنـزل .. اكتشـفت أننـي أهملـت شـعري بشـدة .. قـررت النـزول إلى الشـارع والذهـاب إلى الكوافـير .. بـدأت إذن أمـارس حريتـي التـي منعنـي « مـرضي» مـن تـذوق حلاوتهـا .. توقفـت في الطريـق.

- أهلا ناهد .. كيف حالك؟

اسـتقرت عينـاي فـوق صدرهـا .. إنـه فعـلا جميـل .. بـل إن كل قوامهـا جميـل .. حاولـت الابتسـام لأخفـي غصـة في حلقـي .. كان حبيبـي يتحـدث بعينـيّ خبـير ! مـاذا دهـاني؟ إننـي لم أمـارس حريتـي بعـد .. شيء مـا يكـبر في قلبـي .. يُلـح ويُلـح .. وأنـا أحـاول إخـماده .. فأنـا لم أمـارس حريتـي بعـد .. تعبـت .. ضقـت بالشـارع ولم أقطـع منـه سـوى خطـوات معـدودة .. اسـتدرت عائـدة إلى البيـت .. هرعـت إلى نافـذة أفتحهـا في دعـوة صريحـة لصـوت آلات تنبيـه السـيارات !! أدرت مفتـاح الراديـو .. عـدت أغلقـه بسرعـة .. تناولـت كتابـا قريبـا منـي .. قـرأت الصفحـة الأولى خمسـين مـرة

.. عـدت ألقـي بـه جانبـا .. جـرس التليفـون يـرن .. اعتـذرت لصديقتـي عـن مصاحبتهـا للذهـاب إلى السـينما .. لإصابتـي بالصـداع ؟! فـرت دمعـة مـن عينـي وهـما تمـران عـلى مطفئـة سـجائر .. ابتسـمت وعينـاي لا تـزالان مبللتـين بالدمـع .. ثـم ضحكـت بصـوت عـال وأنـا أتذكـر صراخـي.

- أف .. رائحة سجائرك لا تُطاق !!

- غريبة .. مع أن كل السيدات تحب رائحتها !

حاولـت النـوم .. سريـري الواسـع يبـدو لا نهائيـا .. وكأنـه المحيـط .. خفـت مـن النـوم عليـه .. فتـت عظامـي الحنـين إلى حبيبـي .. عـصرني الشـوق إلى لحظـة عنـاق معـه .. قفـزت مـن السريـر وكأن عقربـا لدغنـي .. اسـتلقيت بإعيـاء عـلى أريكـة صغـيرة .. اسـتيقظت فزعـة .. حتـى لا أقـع في هُـوة سـحيقة.

مـرت عـشرة أيـام ثقيلـة .. ثـم عـشرة أيـام أثقـل منهـا .. وأنـا لا أرى الشـارع إلا في ذهـابي إلى العمـل وعـودتي منـه .. أحمـل في قلبـي إحسـاسي المرهـق بالوحـدة .. وأخـشى السـير وحـدي في الشـارع، وكأنـه كان يمسـك بيـدي كطفلـة .. فارقنـي الأمـان الـذي كان يسـكنني وحبيبـي في مـكان مـا .. تحـت سـماء القاهـرة.

فتحـت « دولاب» ملابسـه .. امتـدت يـدي في حنـو إلى قمصانـه .. بـدأت عينـاي في البحـث عـن الأزرار الناقصـة .. أخـذت أثبتهـا كلهـا .. اشـتعل جسـدي بحماسـة مفاجئـة .. أخـذت أعيـد ترتيـب كتبـه وملابسـه وكل الأشـياء .. الحبيبـة التـي تخصـه .. أف .. متـى يعـود بنفسـه؟ متـى تعـود إليَّ حريتـي ؟!

***

عادت إلى بيتي الحياة.

- تعرف فعلا ناهد صدرها جميل !

نظر إليَّ مرتابا .. ثم ما لبث أن ضحك مجلجلا وهو يمسك بخصلة من شعري ويجذبها برفق .. « يا مجرمة !».

سمعت رنين ضحكاته كأجراس الفرحة .. تمنيت ألا يكف أبدا عن الضحك والكلام .. والمشاحنات!!

ابتسم ابتسامة حلوة أمام « الاكتشاف الهائل» .. قمصان مكتملة الأزرار .. تجول بعينيه وتوقف بهما ثوان عند المكتبة .. ضمني إلى صدره في حب غمر كياني كله.

قفزنا معا درجات السلم .. شعرت بزهو جامح وأنا أتعلق بذراعه .. كأنني أريد أن أصرخ في كل الناس أن يشهدوا فرحتي بلقائه .. وصلنا إلى مفترق الطريق بين مكان عمله ومكان عملي .. مشيت نحو طريقي بخطوات واثقة .. ثابتة .. وقد عادت إليَّ حريتي ..!!

عابرة المترو

لم أبحث في قاع ذاكرتي أين رأيت هذا الوجه .. فلقد ظل معي .. يلازمني منذ افترقنا .. فكم شرد ذهني مستعيدا لحظة الفراق .. وعشتها .. في كل مرة .. حتى بعد أن ارتطمت مركبتي بعشرات الصخور، وكادت تهوي تحت عنف الأمواج الهائجة .. أمواج من كل البحار .. داخل نفسي وخارجها .. وفي كل مرة أزداد يقينا بأنني عشت لحظة الفراق بعمر أكبر بكثير من عمري آنذاك .. نعم بكيت بحرقة يومها .. بكيت حتى نفدت دموعي .. أما قلبي فلم تنفد أو تهن قوة آلامه لهذا الفراق .. هل كان قلبي شائخا في الثالثة عشرة؟ هل أدرك قلبي الصغير أن تلك المخلوقة تسبغ عليه حنانا وحبا أكبر أيضا من قدرة سنها على العطاء؟ ربما .. من يدري .. أحيانا تطفو على سطح الذاكرة أحداث مرت كالبرق .. في طفولتي .. وأتعجب للأبعاد التي تركتها في نفسي .. عندما تطرأ لحظة ويكشف حادث ما عن ذلك الكم الهائل المتراكم داخل النفس البشرية لينتقي منه ما شاء ويخرج به إلى السطح ثم يفر هاربا .. وليحدث بعد ذلك ما يحدث . قد أبكي أو أفرح .. أو أشعر بخوف قاس لا أجد من ألوذ به منه .. أو تسري قشعريرة بداخلي .. فمازلت حتى اليوم أعي وأعيش قبلتي الأولى .. قبلتي الأولى والخدر الذي سرى في كياني كله لحظتها .. قبلتي الأولى .. مجردة عما عداها .. فشريكي في هذه القبلة لم يعد يعني شيئا بالنسبة لي . لقد بهت وبهت حتى نسيت ملامحه .. غرقت في خضم البحار والبراكين التي تضج بالدوار الذي صاحبها والدماء التي تدفقت من كل عروقي لتستقر في شفتي .. كل الحياة تركزت يومها في شفتي .. كانت عيناي مغمضتين .. ولم أشعر لحظتها بحاجة لرؤية حبيبي .. كنت أريد

أن أعيش قبلتي كاملة .. وعشتها .. وكلما امتدت اليد الخفية لتأتي بها إليَّ .. أعيشها من جديد .. أما صديقة طفولتي .. فلم أغمض عيني في مواجهتها أبدا.

كنت أنتظر الصباح لأهرع إلى المدرسة فأجدها في انتظاري بالداخل .. في الفناء إذ كانت بالقسم الداخلي .. تستقبلني بابتسامة حانية ومعها نصيبها من الحلوى لنقتسمه .. وأذكر ثورتي عليها ذات يوم .. فكم حاولت شراء حلوى لها بدوري .. وتعذبت لعجزي .. كان شبعي خبزا في عائلتي يعد انتصارا .. « لا تحتفظي ثانية بالحلوى» فأنا لا أستطيع ردّ ذلك لك .. انكمشت في ركن بفناء المدرسة .. وقفت بعيدا أراقبها وأنا لا أفهم سر ثورتي عليها .. مازلت أتذكر دموعها في ذلك اليوم .. أتذكرها كما أتذكر قبلتي الأولى .. لكنها لا تأتي بالخدر اللذيذ .. بل تدفع بالدموع إلى مقلتيّ وصوتها الصغير يهمس في أذني « ساعديني في أن نتشارك» وتطلعت إلى عينيها المحمرتين .. وشعرت باستعدادي لتحمل أي شيء .. أي شيء إلا دموعها .. مددت يدي أمسح حبات الدموع وابتسامة اعتذار تقفز من عيني .. اتسعت ابتساماتنا حتى أصبح لها صوت .. إلى أن كان يوم .. لم يبق فيه مكان للبسمات .. نعم .. سترحل ! ودخلت كلمة الرحيل قاموسي .. دخلت مجسدة .. فالكلمات تختلف معانيها باختلاف طبيعة الظروف التي عشناها وقت «صدورها» فكلمة الموت مثلا قليلة الحروف .. هادئة النطق رغم برودتها .. لا نحس .. بمدى قوتها وبأنها أبشع الكلمات إلا عندما نفقد الأمل في رؤية شخص نحبه وفي مبادلته أي شيء بعد .. ركن من أركان حياتك يهوي كالصاعقة .. مخلفا فراغا رهيبا .. وكأن الموت غول يخنق الأمل .. فالموت لا أمل معه .. وقد يكون المقصود بنهاية الحياة .. نهاية الأمل .. هكذا أيضا كانت كلمة الرحيل .. إلى أين؟ قالت لي شيئا أو اسما لا أذكره ربّما رفضا مني لهذا الشيء أو ذلك المكان فقد أدركت يومها أن الرحيل يشبه الموت أحيانا .. لم أكن زرت العاصمة وقتها سوى

مـرة أو مرتـين .. فكيـف وصديقتـي ترحـل عـن مـصر؟ إن مـصر هـي العـالم .. ومـا هـو خارجهـا هـو الـضرورة .. خـارج العـالم الممكـن إدراكـه رغـم أنف دروس الجغرافيـا .. فهـل هـي حقا أمامي الآن .. في باريـس .. في بقعة ما منها تحـت الأرض؟ لا أدري إن كانـت أحـلى أو أردأ بقعة فيهـا .. لم أعبأ كثيرا لذلك .. إن مـا يعنينـي حقـا أننـي وجدتهـا .. وكأننـي ظللـت أبحـث عنهـا طـوال الأعـوام التـي تلـت فراقنـا .. وأخـيرا .. وجدتهـا .. لم أقفـز فرحا كأرشـيميديس .. بـل تجمـد كل مـا فيَّ وأنـا أحـدّق في قسـماتها .. لدرجـة أنسـتني الضيـق الـذي كسـا وجههـا حائـرة مـن «فضـولي» همسـت باسـمها همسـة تعـثرت وهـي في طريقهـا إلى شـفتيّ .. حاولـت أن أجمـع شـتات نفـسي .. أسـتنجد بـكل مـا تبقـى لـدي من شـجاعة لأخاطب مـن لا أعرفهـا .. ومن أعرفهـا .. أن أصـل حـوارا انقطـع منـذ أمـد بعيـد .. تحديت « قطعـة» الخجـل التي تقف سـدا هائـلا بـين حنجـرتي وشـفتي فدفعـت إلى ثغـري الجـاف بالاسـم الـذي طالمـا أحببتـه: أنـت كلوديت؟ تقدمـت نحوي برأسـها معتـذرة بضجيج المترو وأشـارت إلى نفسـها تسـألني إذا مـا كنـت أعنيهـا هـي بسـؤالي؟ أعـدت عليها سـؤالي باستسـلام يائـس .. أنـت كلوديت؟

أجابت وحمرة خفيفة تكسو وجنتيها: لا .. للأسف !!

كانت رحلتي قد انتهت.

لفحنـي بـرد باريـس القـارس وكأنـه كان بانتظـاري خـارج محطـة المـترو .. ولأول مـرة أفتـح لـه رئتـي بترحـاب شـديد ليسـتقر فيهـما .. وابتسـامة غريبـة ترتسـم عـلى وجهـي .. مـددت يـدي في جيـب معطفـي .. أخـرج منـه أنبـوب صبغـة الشـعر التـي كنـت قـد نزلـت لشرائـه .. وابتسـامتي تتسـع لتصبـح ضحكـة مجلجلـة .. فقـد كانـت عابـرة المـترو .. في العشريـن !

الخاتم و .. الخاتم

ضمته إلى صدرها بكل ما تملك من حنان .. تمنت لو ذابت فيه ولو تحوّلت كل ذراتها إلى طاقة هائلة تمده بالقدرة على تحمل آلامه .. تلك الآلام التي يعاني منها منذ عشر سنوات .. هي عمر زواجه .. كم تخيلت نفسها تعاتب تلك المرأة التي تصلبه في كل يوم ولا تدرك قيمة اقترانها بأنبل رجل في العالم .. قالت له ورجفة اللوعة في نبراتها: يكفيني أنك تحبني وأنني أحبك .. لا أريد ولا أقبل أن تنفصل عن زوجتك بسببي .. أو من أجلي .. استيقظ في وجدانها موروث عشرات الأفلام العربية عن تضحية « الحبيبة» التي تعيش في الظل لتسعد حبيبها، مادامت ظروف الحياة لا تسمح له بالتزوج منها .. كانت تمسح حبات الدموع التي تنساب حارة من عينيه وهي تتمزق حزنا .. سالت دموعها مرات ومرات وهي تخلو بنفسها وتستعيد « معاناته» مع امرأة لا تفهمه ولا تحبه الحب الذي يريد .. أن يدفع ثمن غلطة .. وقع ويقع فيها كثيرون ولا يرون السبيل إلى إصلاحها .. تسري رجفة اللوعة في أوصالها وهي تراه عن بُعد .. عابس الوجه .. حزين الفؤاد والأخرى تجلده بعد الفهم .. تكاد تبتسم فخرا أنها وحدها استطاعت فهمه ووضعت أصابع يديها على مكامن الجرح .. انتابها إحساس بالفخر لأن حضنها هو ملاذه الوحيد كما كرّر لها في أكثر من لقاء لم تطلب منه شيئا قط .. وحسبها أن ترى الابتسامة على وجهه وكأنها تغسله من الألم .. طلب منها مصاحبته لاختيار هدية .. رفضت بشدة .. أخذ يرجوها بحرقة .. مجرد خاتم .. صغير .. يذكرها به وهو بعيد .. رمقته بنظرة عتاب نافذ .. وهل نسيته لحظة ؟! انسحقت مقاومتها .. لا بأس .. سأنزل معك لاختيار الخاتم .. غمرتها فرحة لم تعهدها ..

وكأنها ذاهبة لاختيار خاتم الزواج .. الزواج به هو .. هو دون غيره .. أخذت تنتقل بعينيها بين المعروضات الذهبية الجميلة .. وبدا وكأنه قاطع رحلة البحث والمتعة التي كانت تقوم بها وسط الأشكال الفنية البديعة .. توقف عند خاتم صغير .. بسيط .. لا تدري كيف قفز سعره إلى عينيها؟ كان الأقل سعرا .. تهلل وجهه وهي تؤكد له كذبا إنه أجمل المعروض وإنه الذي أعجبها بالفعل .. طفرت فرحة من عينيه .. أطل الشعور بالارتياح من قسمات وجهه .. انتظرت أن يخرج معها ليلبسها الخاتم .. لحظة حلمت بها سنوات وسنوات .. حتى وإن كانت بدون زفة ومعازيم .. حسبها أن يقوم هو بوضع الخاتم في أصبعها .. ستصر على أن يكون أصبعا من يدها اليسرى .. لكنه استمر في استعراض المشغولات الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة المتلألئة .. أشار للبائع على خاتم معين .. اعترتها الدهشة وهي ترتجف إشفاقا عليه من ارتفاع ثمن الخاتم .. لم يكن الأجمل .. بل الأغلى .. سألته لمن يشتري هذا الخاتم؟ أجابها دون أن يطرف له جفن .. إنه لزوجته !!

ما بين الحب الأول .. والأخير

مادت الأرض تحت قدميها وهي تسمع الخبر .. سيأتي إلى مصر بعد كل هذه السنين؟ كان حبها الأول .. أول من خفق له قلبها .. معه كانت قبلتها الأولى والدوار اللذيذ الذي صاحبها .. قال إحسان عبد القدوس: إن حبك الأول هو حبك الأخير .. أين الوهم وأين الحقيقة في ذلك يا عم إحسان؟ لماذا دق قلبها بنفس عنفوان سنّ ما قبل العشرين عندما ربط بينهما الحب؟ تترقب طلته .. ترصد النظرات التي يرسلها إليها خُلسة .. تدفع نظرات الحسد في عيون زميلاتها في المدرسة بدماء الحياة في عروقها يسكنها شعور بالزهو .. فقد اختارها هي وهي بالذات .. كانت قصة حبهما حديث المدرسة ومحور جلسات النميمة .. إنه شديد الوسامة حلو التقاطيع، يبدو شعره الأسود الناعم وكأنه إطار طبيعي يبرز لون بشرته الوردية .. فارع القوام .. أما هي .. ففتاة عادية .. لا تلفت نظر أحد وتبدو وكأنها لا تسعى إلى ذلك أصلا .. فهي لا تُعنى بمظهرها .. لم تشعر برغبة في التزين ولا مرة واحدة في حياتها .. كان يخيفها إحساسها بعدم الحاجة إلى أن تتجمل .. تستمتع بدهشة ممزوجة بالقلق لزميلاتها « أنت غير طبيعية .. تفتقرين إلى الأنوثة ! كيف وهي تذوب وجدا بين يديه؟ تشعر بحرارة قلبها تصهر ضلوعه وهو يضمها إلى صدره بحنان .. يسري مسّ كهربائي في جسدها كله وكفّها الصغيرة تناك في كفه الكبيرة .. يضغط عليها برفق .. وبقوة في ذات الوقت .. تكاد تطير لفرط سعادتها .. وكأن الحياة بكاملها قد تركزت في حضن كفيهما .. لم تعد ترى رجلا غيره .. تطرد التعليقات التي تخرق أذنيها .. كيف وقع هذا الجميل في حب تلك البنت؟ ما الذي أعجبه فيها؟ عبارات تقض مضجعها .. ماذا لو تحول عنها

وأحب سارة ذات الشعر الأحمر الثائر المثير ..أو لو أن قلبه مال لنادية التي حظيت في المدرسة بلقب سمراء حلوان الفاتنة .. أو ماجدة ذات القوام الفارع التي تقفز الفتنة من تضاريس جسمها الفائر؟ يضيق صدرها تكاد تختنق .. تعتدل من رقدتها إذ استعصى النوم .. تسرح بعيدا تراه يقبّل سارة أو يحتضن نادية أو يضع يديه حول خصر نادية النحيل أيّ عذاب هذا يا ربيّ؟ تستحضر قسماته الحلوة وهو يهمس لها بأرق وأعذب كلمات الحب .. لا تعرف من أي منهل ينهلها .. كلمات لم تقرأها في كل قصص الحب وما أكثر قصص الحب التي قرأتها .. سافر حبيبها .. أم أرغم على السفر؟ انتابها آنذاك ضياع تام .. كيف يمكن للحياة أن تستمر بدونه .. كيف سيكون شكل الشوارع والحدائق التي كانا يتجولان فيها .. وفيها يتناجيان .. ويقسمان بألا يفرقهما إلا الموت .. هل سيظل نور الشمس على نفس توهجه وهل سينعكس ضوء القمر بذات الحنان؟

قهرها الحزن .. أمسك بخناقها بوحشية .. لكن شعاعا برق فجأة .. شعاع ارتياح .. نعم سيرحل .. ولن يكون لغيري .. لن يقتلني القلق ذعرا من فكرة أن يكف عن حبه لي .. الفراق هنا بيد عمرو وليس بيد أي منّا .. امتزجت دموعها ببسمة هادئة لهذا الخاطر الغريب .. لكن سرعان ما غاصت البسمة الهادئة في بحر الدموع .. بثتها كفها الصغيرة لوعة الشعور باليتم .. فقدت ملجأها الذي كانت تلوذ به .. إن الفراق يشبه الموت أحيانا .. علا نحيبها .. وعلا صخب حبّها الجارف الجامح .. لن تراه مرة أخرى .. لن تعانق عيناها عينيه .. ستختنق عبارات الحب الدافئة .. ستذوي بعيدا .. إنه موسم الجفاف .. موسم طويل .. ثقيل لا تدري كم يدوم من الأعوام .. غداة رحيله .. ضاقت الدنيا كثقب إبرة .. وربّما أضيق من ثقب الإبرة .. ما أقسى اليتم ممن لا يزال على قيد الحياة !

***

سارت الحياة مملة .. رتيبة .. تتشابه فيها الأيام والأشياء .. قاسية قسوة فوق طاقتها على الاحتمال .. مثل زمهرير طوبة الجبان .. كانت تتفصّد عرقا وترتعد بردا في نفس اللحظة .. ازداد هزال جسدها الهزيل أصلا .. امتقع لونها وزاغت عيناها وقد أعياهما البحث عن ملامحه انتظارا لمعجزة لم تفارق أبدا أحلام يقظتها .. تراه منتصبا أمامها .. ابتسامة ساحرة تتوق إليها ترتسم فوق شفتيه وتقفز من عينيه .. فاتحا ذراعيه لتختبئ فيهما كالعادة .. تستيقظ على كابوس غيابه .. ثقلت خطاها وغادرت فرحة الحياة إلى مكان مجهول .. شحبت ألوان الزهور وخضرة الأشجار .. غزت المرارة حلقها غزوا مستديما .. انتفض قلبها حزنا ضاربا في النخاع .. لن تراه ثانية .. انقطعت أخباره تماما .. بذلت جهدا خارقا حتى تستطيع أن تطفو .. مجرد أن تطفو .

حتى عندما التفّت حولها الصديقات مواسيات، كانت تلمح نظرات ارتياح تتناقض مع عبارات التشجيع .. وكأن كلا منهن قد أراحها رحيله فإن لم يكن لها فلا أقل من ألا يكون لأحد آخر همست لنفسها .. لن أفتح باب قلبي لغيره .. سأعيش على ذكرى أيامنا الجميلة معا.

***

لا تدري كيف مرت السنوات الثلاث قبل أن يظهر فارسها الجديد؟ دفعت بقلبها نحو الحب الذي ناداها .. لحظات .. كانت تتداخل فيها الصورتان .. حبيبها الغائب .. وحبيبها الجديد .. استسلمت للحبّ القادم بكل قواها .. تزوجت .. وأنجبت .. ذاقت لحظات سعادة طاغية ولحظات شقاء ممزوجة بيأس قاتل .. تجاذبتها الأمواج .. واحدة تغوص بها إلى القاع وأخرى تطفو بها إلى برّ الأمـــــان .. نسيت حبها الأول؟

.. ربما تناسته .. صدَّقت إحسان عبد القدوس عاشت الدور .. العاشقة الولهانة .. عندما فاجأتها شعيرات بيضاء داهمها خاطر سريع .. تُرى .. هل اختط الشيب رأسه أيضا؟ ما شكل حبيبته؟ بماذا يهمس لها؟ هل تقتحم ذاكرته أحيانا مثلما يفعل هو معها؟ تسارع بطرد هذا الخاطر الذي يزورها بغير استئذان أو مقدمات .. إنها امرأة عاشقة لحبّها الأخير الذي هو حبّها الأول كما قال إحسان.

***

كثرت العواصف وتجمعت السُحب .. لم تجد جهودها للحفاظ على عشها الصغير .. وفي لحظة هدوء أعقبت إحدى تلك العواصف العاتية اتفقا على ضرورة الفراق .. تناثرت كلمات كثيرة .. بليغة عن التحضر وعلاقاته بعد الانفصال .. عن مستقبل الابنة والابن .. لتبق الصداقة .. أغرقت نفسها في العمل .. وضعت طموحها المهنيّ على رأس الأولويات .. كانت تتوق إلى نجاح يعوض مرارة الفشل الذي هدّ كيانها .. فشل تئن تحت وطأته .. انغمست في العمل أكثر فأكثر .. قفزت سلم الصعود بقفزات واسعة .. تزاحمت عبارات الثناء والمديح .. انزوى السوس الذي كان ينخر في روحها وهي تتقلب وحيدة في فراشها .. فحتى الابنان انشغلا .. الردود على العتاب جاهزة .. والله لا نجد الوقت لنهرش !! تقولها الابنة ويقوها الابن .. الحياة شرسة بمعاركها .. الأحفاد ومشاكلهم جيل الإنترنت صعب المراس .. تضحك من أعماق قلبها لنوادر الأحفاد .. يشكلون عاملا حاسما في تثبيت قناع السعادة الذي تصنعه فوق ملامحها بإحكام ومهارة .. لقد حققت نجاحا يحسدها عليه الكثيرون .. ماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك .. أبناء وأحفاد ونجاح في العمل وحياة مريحة ميسورة .. لكن القناع يسقط سقوطه الحتمي من حين لآخر .. ويبدأ السوس يسرح ويمرح في ساحة الخواء العاطفي .. لا يمكن

أن تبـوح لأحـد بمشـكلتها مـع السـوس .. سـيقولون: هـذا بطـر .. مـاذا تريـد بعـد؟ إن لمسـة الحنـان لا تدخـل في الحسـابات الظاهـرة .. تتـوق إلى لحظـات حنـان .. إلى روح تشـاركها اللحظـات الحلـوة والمـرة .. نوبـات الضعـف والقـوة .. تريـد أن يقتسـم نجاحهـا إنسـان يخفـف عنهـا وَهَـن الجسـد والـروح.

فجـأة تسـمع أنـه سـيعود إلى مـصر في زيـارة .. بعـد كل هـذه السـنين .. هـل سـتتعرف عليـه؟ وهـل سـيعرفها هـو بسـهولة؟ إن علامـات الزمـن سـتكون أقـوى مـن كل محاولاتهـما؟ انقلبـت حياتهـا رأسـا عـلى عقـب .. صـارت تعـد الأيـام بالسـاعات .. بالدقائـق والثـواني .. التـي تفصلهـا عـن لحظـة اللقـاء .. هاجمتهـا الشـوارع والحدائـق التـي كانـت شـاهدا عـلى قصـة حبهـما وعـلى كتابـة سـطورها الأخـيرة .. وكأنهـا في سـنوات مـا قبـل الفـراق .. صعـدت درجـات السـلم .. قالـت لهـا أنفاسـها اللاهثـة: إن الزمـن قـد سـار مشـوارا طويـلا .. تسـمّرت في مكانهـا لحظـات .. كانـت تعـرف أنـه هـو .. وكان يعـرف أنهـا هـي .. لحظـات تـردّد كأنهـا عـشرات السـنين فالصـورة ليسـت نفـس الصـورة .. قـال مـن ناحيتـه وهـو يبتسـم فرحـا بلقائها: كان مـن الصعـب أن أتعـرف عليـك وحـدي .. قـال مـا كانـت تريـد أن تقولـه لـولا أن صوتـه منعهـا .. إنـه نفـس الصـوت .. بنفـس الرنـين الـذي أحبتـه .. دام اللقـاء ثـلاث سـاعات .. تدفـق سـيل الذكريـات .. طلـب إليهـا أن تحـكي لـه حياتهـا منـذ غـادر الوطـن .. طلبـت إليـه نفـس الطلـب .. وكأن قوسـين قـد فُتحـا في حياتهـما وكأن سـنوات البعـاد قـد تلاشـت وتبخـرت .. دوامـة عنيفـة كانـت تعربـد بداخلهـا .. كلّـما استرسـل في الـكلام كلـما اسـتعادت ملامحـه بدقـة .. وكأنهـما افترقـا بالأمـس .. بـذلا جهـدا مضنيـا حتـى لا تشـعر زوجتـه بمـا كان تجمعـت نـذر الخطـر ونظراتهـما تفضـح الـسّر. آثـرت الانسـحاب بحجـة الارتبـاط بموعـد عمـل مـع وعـد بزيارتهـما في شـقتها .. دعـوة عـلى العشـاء .. كان الحـرص عـلى إخفـاء

السّر دون اتفاق مسبق بينهما .. بنفس التواطؤ وهما في سن ما قبل العشرين .. تسري الدماء حارة في العروق .. استدارت مسرعة بانتظار اللقاء الجديد .. وما بين اللقائين عاشت لحظات فريدة .. تحلق حينا في سماء السعادة وتهوي حينا إلى حيث السوس الذي يفترس كيانها .. ظلت الأسئلة تتراقص وتلحّ بدون إجابات شافية .. هل حبك الأول هو حبك الأخير؟ هل ظل يحبها طوال السنوات الخالية؟ وهل كانت تحبه بدورها؟ هل هو نفس الشخص الذي كانت تذوب شوقا إلى نظرة من عينيه؟ هل فاجأه نجاحها والثقة الظاهرة التي كانت تتحدث بها؟ هل استشف أن زلزالا داخليا كان يدوّي بداخلها؟ أمسكت رأسها بكلتا يديها خشية أن ينفجر وتتناثر ذراته المتعبة؟

***

في يوم اللقاء الثاني انتهز فرصة غياب زوجته لحظات ليقول هامسا:

أنت لا تدرين ما فعله بي لقاؤنا .. تفجرت كل ينابيع الفرح بداخلها .. لكنها سألته بلوعة: ألهذا قررت تقديم موعد عودتك إلى المهجر؟ أجاب بسرعة:

نعم .. التقت عيونهما .. كادت تنفجر فيه ثائرة .. تماسكت بجهد أسطوري استرسل بصوت متهدج .. مضطرب: شعرت زوجتي بالأمر حانت لحظة الوداع .. خارت قواها وهو يلف خصرها بيديه .. كادت تلقي بنفسها فوق صدره .. همست بكل شوق السنين .. ستوحشني .. أجاب هامسا وكأن كلماته قطرات دموع: أنت أيضا ستوحشيني .ضغط على يديها بقوة .. أصاب الجنون ضربات قلبها .. ابتعد نحو المصعد وزوجته تقبض على ذراعه بقوة .. عادت إلى شقتها شبه مخدرة .. رأسها يدور بعنف .. يقفز قلبها فرحا .. إنه لا يزال يحبّها .. وهي لم

تتوقف يوما عن حبه .. أوت إلى فراشها وقد غادرها السوس لأول مرة منذ زمن بعيد .. تطلعت إلى المرآة وابتسامة واسعة تضيء ملامحها .. اختفى الشعر الأبيض وهزم الحب علامات الزمن .. جففت دمعة الفراق من عينيها .. استسلمت لنوم عميق هادئ .. رحل الحزن راكضا أمام عنف السعادة .. أدرك ألا مكان له بعد اليوم .. ألقت بالقناع بعيدا وبقوة خارقة .. وعندما توجهت إلى مكتبها في اليوم التالي كان الكل يسأل عن سّر حلاوتها النهاردة ماذا جدّ عليك يا سيدتي؟ قالت إحداهن مداعبة على سبيل النكتة:

" تكونيش بتحبي ؟ ! "

امرأة في الشانزليزيه

لم أقـوَ عـلى ضبـط تجـول عينـيَّ بـين واجهـات الشـارع الـذي طالمـا طـارد أحلامـي الصغـيرة .. كانـت تنقلنـي مـن نقطـة إلى نقطـة .. مـن انبهـار إلى آخـر .. أسـير مشـدوهة أمـام أجمـل شـوارع العـالم كـما يحلـو للفرنسـيين وللسـواح أن يسـموه .. إيقـاع الخطـوات في الشـانزليزيه يشـبه نغـمات الموسـيقى .. تتمهـل .. تـسرع .. تعلـو .. وتخفـت حسـب أصحابهـا .. هـا أنـا في الشـارع .. الحلـم .. في قلـب باريـس الراقـص .. الثري .. أسـمع كل اللهجات وأرى كل الأجنـاس في الشـارع الـذي يدعـوك بمهـارة أن تدفـع كل مـا معـك .. ولا بـأس مـن أن تسـتدين لتسـد شـهيته المفتوحـة إلى حـد الشراهـة لنقـود العـالم .. الأضـواء تتـلألأ كنجـوم سـاطعة .. تخيـل ليـل باريـس الصيفـي الحـار .. نهـارا بـلا شـمس .. وفجـأة .. رأيتهـا .. تتـوكأ عـلى عصـا لا تخفـي عرجهـا الظاهـر، تشـق طريقهـا بصعوبـة وسـط زحـام الشـانزليزيه .. وتبـدو خطواتهـا نشـازا وسـط إيقاعـات الشـارع المـرح .. تحـاول جاهـدة الوصـول إلى محطـة المـترو .. وفجـأة .. زلـت قدمهـا ومعهـا عصاهـا .. وسـقطت عـلى الأرض .. نسـيت زواق الواجهـات وأحلامـي عـن الشـارع الشـهير .. أحسسـت وكأننـي في شـارع مـا في القاهـرة، تهـوي فيـه سـيدة عجـوز .. عرجـاء . اندفعـت أشـق لنفـسي طريقـاً إليهـا .. اندفعـت وحـدي .. وسـط نظـرات الآخريـن الضائقـة بلهفتـي .. انحنيـت أمـد إليهـا يـدي أعاونهـا عـلى النهـوض رمقتنـي بنظـرة ناريـة .. تشـتعل غضبـا .. وكأننـي ارتكبـت جرمـا يخالـف نواميـس العـصر وتقاليـده .. قالـت لي بحـدة: لا، شـكرا .. قالـت عيناهـا الملتهبتـان بنـار الغضـب: لا شـأن لـك بغـيرك .. وامـض في طريقـك ! ابتلعـت غصّتـي بصعوبـة .. زحفـت غربـة بـاردة إلى عظامـي .. جريـت أهـرب مـن الشـارع المـرح .. قبـل أن تجمـد برودتـه قلبـي.

يا بو حلاوة يا تين

- يا بو حلاوة يا تين.

نـادى وكأنـه يـئن بصـوت عـال .. أو كأنه لحـن جنائزي بعد أن ظـل واقفا عـلى قدميـه أربـع عـشرة سـاعة .. بـدأت في الفجـر وكأنـه خـرج مـن بيتـه يوقـظ الشـمس، حتـى هـذه اللحظـة وهـو يشـدو بلحنـه الحزيـن « يـا بـو حـلاوة يـا تـين» .. ومـن يـدري إلى متـى سـيظل عـلى وقفتـه هـذه وقـد ودع الشـمس وهـي تذهـب للنـوم بعيـدا؟ ودعهـا وهـو يشـهدها عـلى أنهـا كلّت قبلـه .. وكان يراقبهـا وهـي تتثـاءب والنـوم يثقـل عينيهـا فيطفـئ ضوأهـما المتوهـج شـيئا فشـيئا حتى خبا .. والظـلام يفرد جناحيه على السـماء .. وتذّكر أحاديـث أمـه في القريـة: الليـل لما الشـمس تصحـى .. يهرب ويخـاف ويفضل يجـري ويجـري .. يسـتخبه عنـد العفاريـت .. وأول مـا الشـمس عينيها تغفل .. ييجـي يجـري جـري بعبايتـه السـودة .. لقـد كان يخـشى دائمـا في القريـة «العبايـة السـودة».. ولا يـزال هـذا الإحسـاس الدفـين يرسـب في أعماقـه رغم كل الأضـواء التـي تتـلألأ في المدينـة ورغم هذا « الكلوب» الـذي لم يكن يوجد مثلـه إلا في دوّار العمـدة .. بينـما يضعـه هـو الآن فـوق عربـة التـين .. وكلـما ذهـب نـداؤه سـدى ازدادت نـبرات الحـزن في غنوتـه الصغـيرة .. فهـو يبـذل جهـده حتـى يقـترب نداؤه من « المـوّال» الذي أحبـه في قريتـه وافتقده كثيرا في المدينـة الواسـعة .. وهـو يذكـر أمـه التـي كثـيرا مـا أبـدت إعجابهـا بصوته .. وشـعر برغبـة في إعـادة النـداء لمجـرد مـرور هـذا الخاطـر في ذهنـه .. ربّمـا ليثبـت لأمـه في العـالم الآخـر أن صوتـه مـازال جميـلا .. أو ربّمـا لأنـه أراد أن يعيـش مـرة أخـرى إعجابهـا به.

وأفاق على فتى .. في حوالي السادسة عشرة من عمره .. وابتسم له ابتسامة

متسائلة عمّا جذبه . أهو حلاوة التين أم « الموّال» ؟ وحملق فيه .. إنه نحيل مثل عود القصب .. يختلط لون وجهه الشاحب بلون ملابسه الناصعة البياض .. في عينيه هدوء عميق .. هدوء يشبه النداء الحزين « يا بو حلاوة يا تين» أضاف إلى عمره سنوات عديدة وكأنما الله قد خلق عينيه قبل أن يخلقه بعشرين عاما على الأقل .. كل قطعة في ملابسه نظيفة .. منسقة.

والفتى يتطلع إلى البائع متسائلا .. أي شيء في تلك النبرات الحزينة..؟

إنه لا يعرف معالم انتهاء وجهه أو بداية ملابسه .. إن لونهما واحد .. لون التراب وكأنه أسطورة عذاب آدم. العرق والطين .. بل كأنه قطعة الطين التي نفخ فيها الله لتوه روح المسيح فبدت حبات العرق تتساقط من فوق الصليب .. وكأن كلّ ما فيه يبكي .. ورأسه مغطاة بطاقية .. وهز الفتى كتفيه .. إن الناس من حوله تتحدى الحر فتكشف عن أجسادها بالقدر الذي تسمح به الأخلاق .. إن طاقية البائع أيضا بلون الطين « لماذا يذكرنا بعض الناس بأننا خُلقنا من طين ..؟!».

وبصق البائع على الأرض .. ثم عاد يركز عينيه على الفتى الذي تسمر أمامه .. ونهر طفلة تقف إلى جواره .. تخفي شعرها الأشعث الرَّث تحت قطعة مهلهلة كانت منديلا للرأس ذات يوم.

«يا بت ابعدي إيدك .. ملعون أبوكي».

وتركت الفتاة التين ولا يعكس وجهها جديدا بعد سماعها تلك اللعنات .. ونادت بصوت رفيع حاد:

- يا بو حلاوة يا تين .. !

وسحابة حزن تشع من عينيها .. وترفع يدها تحك شعرها وهي

تنظر في غضب إلى المارة الذين لا يهرعون إلى العربة ويخلصونها من الليل .. إنها لا تحب الليل فهو يأتي دائما في أعقاب ساعات طويلة من الوقوف في حرارة الشمس التي تحرق وجهها في كل يوم حتى أصبحت في لون البن المحمص.

وشعر الفتى بريقه يجري بعد سماعه صراخ الفتاة والبائع يقف بالقرب من « الكلوب» متشاغلا بتنقية الشوك من يديه بعد يأسه من الزبون الجديد .. وهو لا يملك إلا أن تزداد رنة الحزن في النداء القادم وكأن أغنيته الصغيرة تصدر من قلب عاشق جريح أضنته الشجون ولمعت عيناه فجأة عندما اقترب الفتى من العربة يسأله:

- بكام التين يا ريس؟

وأجاب البائع:

- ثلاثة بقرشين.

فأومأ الفتى برأسه.

- قشر لي ثلاثة !

وتعجب البائع في دخيلته من هذا النموذج الفريد من الزبائن .. فقد كان على أتم استعداد للتنازل حتى بيع « الخمسة» بقرش واحد.

وألقى بالقطعة البرونزية في علبة من الصفيح المليئة بالماء وصرخت الفتاة:

- يبقوا حداشر صاغ يا با .. والنبي لا أنت شاري لي نبوت الغفير ولكزها في كتفها رافعا يده الأخرى بسكينه وكأنما يهددها بالذبح:

- يا بت اتكتمي ..

وهمهمت الصغيرة غاضبة بعبارات لا تفهم .. ولكنها واصلت في عناد:

- أمال حتشتريه لي امتى !

ولم يعبأ البائع بتساؤلها بل بدأ في نشاط مفاجئ يقشر تينه للفتى وقدمه إليه.

وقضم الرجل الصغير نصفها .. والبائع يبدأ في البحث عن أخرى .. أو ربما هو يتظاهر بذلك .. وفجأة لمح الفتى نقطا صغيرة .. صغيرة تنزف من أصابع البائع وصرخ وكأنما لدغته حية .. صرخة مكتومة:

- بلاش .. بلاش يا ريس .. أنا شبعت خلاص.

ونظر إليه البائع والشر يتطاير من عينيه:

- الله؟

وأسرع الفتى بقوله:

- خلي القرشين ..

وأجاب البائع ساخرا:

- لا والنبي تاخذهم .. ماله التين .. ده مافيش حلاوته في الدنيا .. وتركه الفتى وانحرف في أول شارع جانبي ليلقي بقضمة التين التي لم يبلعها وقد اختلط طعمها في فمه بطعم النقط الصغيرة التي كانت تنزف من أصابع الرجل (والطين .. وحبات العرق .. ودمعة حارة سالت من عينيه).

القضبان

"يالـلا يـا ريـس إنـت وهـو" .. قالهـا الملاحـظ لجمـع العـمال المصطـف أمامـه عـلى طـول الطريـق إيذانـا ببـدء العمـل.

وشـعر حينئـذ الريـس عبـده بغصـة في قلبـه المسـن الـذي أصبـح ضعيفـا أمـام وخـزات الألم .. خمسـة وسـتون عامـا لم يتوقـف خلالهـا مـن الـدق نالـت منـه الكثـير .. وازدادت عـلى صفحـة وجهـه الخيـوط التـي تيـسر للمـرء اكتشـاف عمـر هـذه الدقـات بسـهولة كبـيرة .. وشرد ذهنـه لحظـات وهـو يرفـع فأسـه تنفيـذا للأوامـر .. فهـو لا يملـك غـير ذلـك.

.... كيـف ؟ كيـف يهـدم هـذا العمـل بنفـس اليديـن اللتـين قامتـا ببنائـه؟ ونظـر إلى قضبـان الـترام بـأسى وهـو يراهـا في روعـة بريقهـا الأول، وكأن السـنوات تقفـل حائـلا بـين عينيـه وبـين عيـوب الـترام .. وبـدأ يسـتعيد بذاكرتـه صـورة حبـات العـرق التـي كانـت تتسـاقط هنـا .. وفـوق نفـس هـذه البقعـة منـذ عـشرات السـنين وهـو يسـاهم بحيويـة الشـباب في تركيـب القضبـان حتـى يحفـر طريـق هـذا السـحر الجديـد .. الـترام.

حبـات العـرق هـذه التـي كانـت تفـوز بأوفـر نصيـب في العمـل عـلى إبـراز هـذه الخطـوط التـي تحيـط بقسـمات الريـس عبـده.

كان وقتـذاك يعـود إلى داره متعبـا وقـد أنهكـه العمـل المضنـي، إلى زوجتـه وشـبه ابتسـامة تعلـو شـفتيه الشـاحبتين:

- تعـرفي يـا أم حسـن .. فاضـل بالكثـير عـشرة أيـام والترمـاي يمـشي .. أصلنـا ركبنـا جـزء كبـير قـوي .. أمـال .. مـا هـو لازم الترمـاي يمـشي في كل شـارع.

- كم كانت سعادته طاغية في ذاك العهد البعيد !

وحدّث نفسه هامسا:

- يا خبر يا عبده .. بقى كده عرقك يروح هدر .. وأنت بالذات إللي تخليه يروح هدر؟

وكان الريس عبده يبذل جهدا كبيرا حتى لا تفر الدموع من عينيه في نفس اللحظة التي رفع فيها الفأس مع زملائه ليرفعوا قضيب الترام .. وأخذ يصب عليهم نظراته الغاضبة في استنكار لإقدامهم على هذه العملة بترحاب. أهكذا يكون المرء عندما يجهل ما بذله غيره من جهد؟ وها هم ينشدون الأغاني بصوت جماعي .. والتقطت أذناه أنشودتهم وكأنها نواح يرثي عرقه الذي ضاع «هدرا» ومر بفأسه برفق وكأنه يخشى على القضبان العزيزة من أن يرتفع صوت احتجاجها .. أو بكائها .. أو .. كأنهم أمروه بتحطيم رأس أحد أبنائه .. لقد انتزعوا منه فرحة ظل يحملها بين جوانحه عشرات الأعوام أثناء مسيراته في هذا الشارع وإذ بصدره يمتلئ زهوا .. نفس الفرحة التي كانت تصحب إشارته لابنه حسن:

- تعرف يا واد يا حسن .. أهو أبوك هو اللي ركَّب القضبان دي كلها.

وكانت سعادته تكاد تطفر من مسامه وهو يشاهد في عينيّ حسن نظرة مملوءة بالفخر لهذا .. العملاق .. الذي ركب قضبان الترام .. وفي كل مرة يتخذ من هذا الشارع طريقا .. يخيل إليه أن جميع المارة يشعرون نحوه بنفس شعور حسن الصغير.

واستند الريس عبده بيدين متعرقتين على فأسه ونظرة شاردة

تطل من عينيه على بحر الذكريات .. وانتبه على صوت حاد ينبعث من حنجرة بارزة لأحد العمال: شد حيلك يا ريس عبده دا إنت لسه شباب ! والتفت إليه الريس عبده ونظرة عتاب تشع من عينيه الضعيفتين:

- شباب إيه يا راجل .. إنتو خليتوا فيها شباب ! ده الواحد قلبه بيتقطع وهو شايفكم بتبهدلوا عرق الشباب.

- إزاي يا ريس عبده؟ إنت ما شفتش الترماي الجديد؟ دا حاجة حلوة قوي .. زي العروسة.

عاد الريس عبده إلى بحر الذكريات بينما انطلق زميله يقفز في مرح حاملا فأسه وكأنه يساهم في حفلة عرس.

وقفزت صورة حسن أمام عينيّ الريس عبده وصوته الحبيب الطفولي في الأيام الخوالي يصدر رفيعا من بين أسنانه المصطكة:

- آبا .. هو الترماي برد كده ليه؟

وكان عبده يضمه حينذاك بكل حنان أبوته قائلا:

- ولا يهمك يا حسن .. بكره يخترعوا ترماي له ببان .. ويمشي من غير دوشة .. زي العروسة.

وتراقصت أمام عينيه الكليلتين صورة الترولي باص .. الترماي الجديد .. بألوانه الزاهية .. وأبوابه .. تماما كما تنبأ «عروسة» وابتسم راضيا عن ذكائه الشديد ألم يتنبأ بالترام الجديد .. ومنذ عشرات السنين ..؟ يا سلام .. كأنه أحد العلماء.

سـيصحب حفيـده للتنـزه في الترولـلي بـاص عنـد الانتهـاء مـن تعبيـد الطريـق .. لـن يشـكو حفيـده الطفـل مـن صقيـع ينايـر .. وكل الأطفـال .. ولكـن ذلـك عندمـا ينتهـي مـن تعبيـد الطريـق، وشـعر بحـماس مفاجـئ في فـؤاده .. ورفـع الفـأس بقـوة بعثهـا في عروقـه طيـف الأمـل الجديـد .. يجـب أن نعبّـد الطريـق بسرعـة .. وأخـذ يدنـدن مـع الشـباب أنشـودتهم .. وبـدأت حبـات العـرق تتسـابق إلى النـزول مـن جبهتـه فنظـر إليهـا مبتسـما:

لأ .. عرقك ما يروحش هدر أبدا يا عبده.

الغريب

ذاب جسدي تحت وقع السهام .. حادة .. أدمت كل ما فيّ .. قلبي ينزف .. كل جزء من جسدي ينزف .. روحي تنزف .. من ينقذني .. من تلك السهام اللعينة؟ العيون الصامتة تنشب نظراتها في قلبي .. في أحشائي ليتني لم آت إلى هنا .. صقيع يناير لا يوقف نزيف العرق .. أو الدماء .. عرق أم دماء؟ لم أعد أدري .. نظراتهم قاسية .. قسوة الصمت في ليل صحراء رهيبة .. تترامى إلى ما لا نهاية .. إلى اليأس .. المفزع .. ولا مفر .. لا أحد يخطو لإسعافي .. وحيد .. وحيد .. ما أبشع الوحدة في قلب المدينة .. وسط آلاف العيون .. تتطلع إليَّ .. وكأن قطرات الدماء تشفي غليلهم .. حلقي محشو بالتراب .. لا أحد يسمع صرخاتي المكتومة .. المحشوة بالتراب .. أذناي تكادان تُخترقان من هول الرعد .. صوت عيونهم رعد .. يسألني بإلحاح جارح .. ماذا تفعل هنا ورفاقك في السجن؟ ماذا كان الثمن؟ هكذا قالت كل العيون .. وكأنهم جميعا ولدوا في نفس اليوم .. بنفس النظرات .. ورضعوا الاتهام من صدور أمهاتهم.

- " وما لكم أنتم؟ ".

عبثا أقنع نفسي بأنهم لا شأن لهم بي .. لو صرخوا فيَّ .. لو شتموني لو نطقت نظراتهم كلمات .. أو كلمة .. فقط كلمة .. أسمعها .. تخفف من هول الرعد في أذني .. أدفعها .. أرد عليها .. أقسم بأنني لم أبع نفسي للشيطان .. أقول: إنني فقط هادنت ..

" المهادنة أول طريق الخيانة ! ".

هكذا تقول أصوات عيونهم.

ازداد هـول الرعـد .. تـاه ردي وسـط دويّ الزلـزال .. زلـزال الاتهـام .. الصمـت.

- خيانـة .. لأننـي آثـرت السـلامة .. خيانـة .. أتريـدون منـي معانقـة المـوت؟

تتراشق سهامهم في بدني.

- "ورفاقك ألم يمت منهم الكثير؟ ".

ليخـرس هـذا الصـوت ولـو خـرس معـه الكـون بـأسره .. طنـين الصمـت مطرقـة تواصـل ضرباتهـا فـوق أعصـابي .. أعيـت كل مـا فيَّ .. أصـاب الوهـن كل ثنايـا مخـي .. عصـا قلمـي وكأنـه يـزن عـشرات الأطنـان .. حتـى عينـاي .. أخفيهـما خوفـا مـن أن تفقأهـما السـهام .. احتبسـت صرختـي خلـف جـدران سـجني الجامـد .. البـارد .. مـا أتعـس أن يكـون سـجن المـرء هـو جلـده ! أف .. أريـد أن أتنفـس .. سـجني يضيـق .. يطبـق بعنـف عـلى رئتـي .. يهشـم عظامـي .. يسـيل نخاعهـا .. يختلـط بـدوره بحبـات العـرق والدمـاء.

قرأت في عيونهم الصامتة:

- أنـت لسـت بسـجين .. لقـد نفـذت بجلـدك .. هادنـت .. أنـت حـر .. طليـق .. جـرّب .. اجـر إلى الطريـق .. اجـر .. لا تتوقـف .. كي لا يعـود جلـدك ينكمـش .. الحـق .. بالأتوبيـس .. هـا هـو .. قـف والتقـط أنفاسـك .. التقـط مـا تبقـى لـك منهـا .. اجلـس بالقـرب مـن نافـذة البـاص .. حتـى لا تتعطـل عينـاك .. انـزع ربـاط عنقـك .. وإلا اختنقـت .. ألقـه بعيـدا .. كأنـه حبـل

المشـنقة .. رفيـع كحيـة تتربـص بفريسـتها .. كـم قطـع الأتوبيـس قبـل أن تعـود أنفاسـك وتنتظـم؟ لا يهـم .. سيسـتقبلونك كـما سـبق وفعلـوا منـذ خمسـة أعـوام .. هـل تذكـر؟ كيـف لا تذكـر وقـد حكيتهـا مـع كل شـورق؟ كانـت ابتسـامات السـماعين تدغـدغ كبريـاءك .. تطـلّ نظـرات الدهشـة مـن عيونهـم فتملـؤك فخـرا .. تهـب واقفـا تلـوّح بيديـك مختـالا كالطـاووس .. تـروي .. كيـف هربـت .. مـن عسـكر السـلطان .. دخلـت أيامهـا القريـة في ثيـاب أعـرابي .. حلقـت شـاربيك .. صـاح إبراهيـم وكان صبيـا بعـد:

- والله لو يطخوني ما أحلق شنبي .. هي ديتها عشر سنين سجن؟

هـبّ الـكل في صرخـة جماعيـة فـزع لهـا إبراهيـم .. قالـوا في صـوت واحـد وكأنهـم يحفظـون القصـة عـن ظهـر قلـب .. يتغنـون بهـا:

- «ده أبو زيد الهلالي يا ولد .. ده مدوخ الحكومة».

أجراس الفرحة ترن في حناجرهم:

- بلدنا مدوّخة الحكومة يا جدعان .. بلدنا ولاّدة .. جابت بطل .

- كانـت عيونهـم مـأوى لـك .. جفونهـم غطـاؤك .. مائـة قسـم « الليلـة العشـا حـداي» .. ألـف « رقبتنـا فـداك» صـورك ومقالاتـك أحجبـة فـوق الصـدور .. التقـط هـذه الدمعـة .. ابتلعهـا .. كان أيضـا شـتاء .. وكـم شـعرت بالـدفء يومهـا ! سـيعود إليـك الـدفء .. سـتخمد تلـك الرعـدة التـي لم تـترك فيـك إلا الحـزن .. وكأنـه يترعـرع فيهـا .. سـيعود الـدفء .. والمائـة قسـم .. والألـف فـداء .. لا تبصـق وسـط النـاس .. لازلـت عـلى أطـراف المدينـة .. أنـت معـروف .. بطـل سـابق .. افتـح رئتيـك مليـا لهـواء القريـة الوافـد.

بـدأ الـدفء يـسري في أوصـالي .. وكأن الشـتاء يخـشى قريتـي .. لا يجـسر عـلى الدخـول إليهـا .. هنـا ولـدت .. هنـا لعبـت .. في هـذا الكتّـاب .. هنـا سـمعت أولى صرخـات الاحتجـاج عـلى جـبروت الإقطـاع وسـياطه .. هنـا أقسـمت أن أقتحـم الحـرب بسـلاح الكلمـة .. « اطـرد صـوت الرعـد الوافـد وراءك مـن المدينـة .. اطـرده بسرعـة ..».

آه .. دفء الأحضـان .. حفـرت كلماتـك عـلى صفحـات الجرائـد أسـاس المدرسـة الجديـدة بالقريـة .. في أحـد الأحجبـة .. المعلقـة فـوق الصـدور.

" الأميـة آفـة آفاتنـا " أصبـح عبـد اللـه عريسـا .. أنجـب إبراهيـم ولديـن .. فتحيـة حامـل .. كل شيء تغـير إلا القلـوب الطيبـة .. أبصـق عـلى المدينـة .. سـألني عبـد اللـه لمـاذا لم أعـد أكتـب؟ خيّـم الصمـت الثقيـل فجـأة .. انطلـق الرعـد مـن عيونهـم.

صـوت عيونهـم رعـد .. عـادت دمـائي تنـزف بغـزارة .. سرت رجفـة خبيثـة في جسـدي .. تقفـز بعنـف مـن خليـة إلى خليـة .. أبعـدوا نظراتكـم عنـي .. ارفعـوا سـهامكم عـن أشـلائي المهترئـة .. لم يعـد فيَّ جـزء لم يمـزق .. الثلـج يزحـف عـلى قلبـي .. يزحـف عـلى عقـلي .. الثلـج يجمـد أطـرافي .. لسـت مجنونـا .. نعـم سـجنكم أقـسى مـن كل الزنازيـن .. حبوسـني عقابـا للكلمـة .. وتحبسـونني عقابـا عـلى الصمـت .. صـوتي يرتطـم بجمودكـم فـلا تسـمعون .. هادنـت فقـط هادنـت .. سأسـد أذني مـن هـول الرعـد .. صـوت عيونكـم يخـترق الكـرة الأرضيـة .. ليذهـب حبكـم إلى الجحيـم .. سـأهرب إلى .. سـأهرب إلى .. ليخـرس هـذا الصـوت .. ولـو ..

الإنسان

رفعت رأسها لحظة وقد شعرت بكلمات الكتاب الذي تقرؤه تتراقص أمام عينيها .. وازداد إيقاع « رقص» الكلمات « الجادة ..الفلسفية» لتدخل في دائرته تلك الصورة التي لم تتخيل لحظة أن تطفو فوق الذاكرة، لتنقلها أو تنقل إليها شارع « ٢٦ يوليو» و «هذا الرجل» بالذات .. رجل يقف طوال النهار وقسطا كبيرا من الليل فوق كرسي دائري بلا خوف .. يدور دورته فوق مساحته الصغيرة وهو يهز عضلات جسده في حركة آلية منتظمة، بنفس الإيقاع، يصبح بنبرات لا تتبدل .. لا ترتفع ولا تنخفض حدتها شعرة واحدة، تردد بوتيرة واحدة:

" بص .. بصّ " بينما يبرز سبابته مشيرا إلى حانوت تجاري هائل.

اعتقدت لأول وهلة أنه يخاطبها .. يطلب منها هي بالذات أن «تبص»! .. وقد التقت نظراتها بعينيه الزائغتين .. إنه فعلا يتجه ببصره نحوها .. وقررت أن تخوض التجربة .. أخذت تروح وتجيء أمامه .. ولكن .. سرعان ما خاب ظنها .. ورفعت كتفيها متظاهرة باللامبالاة .. ووجدت حلا يرضيها .. إنه لابد يفكر في «عشاء الأولاد !» .

غير أنها « أدمنت» التطلع إليه .. اقترن وجوده بالشارع الكبير المزدحم بالبشر في كل ساعات الليل والنهار .. ولا تتبدد دهشتها في كل مرة .. إنها نفس كلمة « بص» والحركة الآلية التي تصاحبها ليلفت بها نظر المارة إلى الحانوت الكبير .. نفس الرنين .. نفس اهتزازة العضلات التي تجعل جسده النحيل ينفر فوق مساحة الكرسي الضيقة .. لقد راقبته أكثر من شهر .. وكأنه يسير « بزمبلك» .. إلى أن كان يوم .. كانت تسير سعيدة وقد تعلقت بذراع زوجها .. تضغط عليها بقوة كأنما

تحتمي بها من برد ديسمبر القارس الذي يتسلل إلى عظامها .. وفجأة طلبت منه الانتقال إلى الرصيف المقابل .. دهش لطلبها الغريب .. سألها عن السبب . ابتسمت نصف ابتسامة .. همست في شيء من الخجل .. " أريد أن أشاهد الرجل الذي يقول: بص .. ! " اتسعت ابتسامة زوجها .. لا تزال حبيبته طفلة رغم بلوغها العشرين .. تثير اهتمامها « الأشياء الغريبة» لكنه يحب طفولتها هذه .. انصاع لطلبها الغريب .. نزوة أطفال .. لم تلحظ هي ابتسامته، ولا تصورت ما دار بذهنه بعد طلبها" الغريب " أخذت تدور بعينيها بحثا عن " لعبتها الكبيرة .. الرجل الزمبلك " غاصت ابتسامتها البريئة، وشعرت بخيبة أمل عندما لاح « الكرسي» من بعيد، خاليا .. تابعت السير في تكاسل .. ارتخت قبضتها لذراع زوجها .. شرد ذهنها قليلا .. شعرت بتأنيب ضمير .. « كم أنا أنانية .. لا أريده أن يستريح كي أستمتع أنا بحركته الآلية واختلاج عضلاته مع كلمة (بص !) التي تتصارع وتتلاحق في الخروج من فمه بنبرتها المعتادة « .. اقتربت من الكرسي حتى لم يعد يفصلها عنه سوى خطوات ثلاث .. انتهى إلى سمعها سعال شديد، عال، يخترق الفضاء ويثبت وجوده وسط ضجيج الشارع وهرجه الشديد .. تتبعت بعينيها مصدر الصوت .. توقفت وسط الزحام الكثيف .. ابتلعت ريقها بصعوبة بالغة .. إنه هو .. هو بعينه .. « الرجل الزمبلك» .. ينبعث منه سعال حاد متواصل وكأنه ظل حبيسا خلف صراخه الطويل:

" بص .. بص ! " آلاف المرات .. العرق يتصبب غزيرا من جبهته رغم أنف صقيع ديسمبر وهوائه البارد .. إنها لم تره أبدا يتصبب عرقا .. فقد بدا أكثر شحوبا وأكثر هزالا .. يعلو صدره ويهبط وكأنه أعلن الإضراب تعبا من مشواره الطويل .. المضني .. أخذ يتكور أكثر فأكثر، يحاول الهرب من لسعات السعال اللعين .. يحاول ألا تتوقف أنفاسه خنقا بضربات السعال.

اندفعت الدموع إلى مقلتيها .. مدت يدها داخل حقيبتها .. أخرجت ورقة مالية صغيرة دستها في يده .. ثم توارت على بُعد خطوات منه تراقب المارة في الشارع الرئيسي بالمدينة .. كلهم يسرع الخطى وكأنهم على موعد لإنجاز عمل عاجل أو مشروع هام .. ويتوقف بعضهم أحيانا أمام واجهة محل تتلألأ بالزينة والمعروضات .. يتمهلون مبهورين أو راغبين .. لم يلحظ أحد وجوده .. لم يدس أحد يده في جيبه أو في حقيبته .. لم يتوقف أحد من هذه " الآلات " مواسيا .. الإنسان .. !

ولكنّا حرسنا مسيحنا

تطلّع كل الواقفين ببهو المستشفى إلى القادمة التي يتقلص وجهها ألما بينما تتسابق حبات العرق إلى النزول من جبهتها .. اخترقت صف العيون مستندة إلى ذراع زوجها .. في خطوات بطيئة، متثاقلة .. توقفت فجأة لتطلق صرخة مكتومة وزوجها يسأل:

- قسم الولادة من فضلك ..

تماسكت بجهد خارق حتى لا تفر الدموع من عينيها .. وألم حاد يغوص في صدرها ويجر معه شكا كاد يعصف بما تبقى من قواها .. مضت لحظات ثقيلة .. ثقيلة قبل أن يظهر الطبيب .. تسارعت دقات في قلبها .. جف حلقها ورجفة خفيفة تسري رغم القيظ الشديد في بدنها كله ... ونظرات الرجاء واليأس تتأرجح في عينيها المرهقتين .. عادت تطلق صرخة مكتومة لتقطع الشك باليقين .. وهمس الطبيب في نبرة إشفاق:

- خليكي تحت الملاحظة !

تفجرت همسة الطبيب المشفقة قنبلة في جوانحها .. تراقص أمامها كل شيء وكأنها غابت عن الوعي بعينين مفتوحتين .. وكأن صوت الطبيب – وهو يردد المجهود .. التوتر – يأتيها من عالم آخر .. جذبها إلى واقع عالمها . ألم سافر .. خلع قناع الشك فأطلقت لصرختها العنان وكأن سوطا ألهب ظهرها.

أغمضت عينيها المكدودتين.

في ذلك المساء .. سمعت صراخه .. سمعتُه وهو لا يزال مجهولا بعد في أحشائي .. يستحلفني بكل شيء .. بأغلى شيء .. به هو طفلي الذي لم يولد بعد .. أن أقفز كل الدرجات .. كان نداؤه أقرب وأقوى نداء «اصرخي يا أماه .. اصرخي من أجلي طالبة منه البقاء».

عاد الألم يقطع خواطرها .. تشبثت بظهر سريرها .. جف حلقها وموجة من المشاعر المتضاربة تعربد في كيانها.

في ذلك المساء .. كان الشارع كله يصرخ باسم طفلي الذي لم يولد بعد .. يستحلفه أن يبقى من أجله .. من أجل كل الأطفال .. الأطفال يمتلئ بهم الشارع .. تمتلئ بهم المدينة .. يمتلئ بهم وطني كله .. يهتفون بنشيد الرجاء .. يمسكون بجلباب الأب .. يسألونه في هلع ..

- إلى أين ؟ بل تبق يا أبتاه !

- في ذلك المساء .. غسلت دموعنا خطايا العالم .. وكأننا حملنا صليب البشرية هما .. تحت هذه السماء التي ألقى عليها يهوذا بوابل نيرانه .. أطفأت بصقاتنا نيران القاتل .. يهوذا !!

أطلقت صرخة جديدة وهي تتمتم:

يا إلهي .. لكل عصر يهوذا .. ولكل عصر مسيح .. وصليب .. في ذلك المساء .. كانت أجسادنا شحنات من طاقة لا تنضب .. تمضي وتمضي .. تطوف بكل شارع .. تسحق في طريقها كل العقبات ..

مضينا طوال الليل نحمي «مسحينا» الذي انتظر يهوذا تسليمه .. بقينا نحرسه .. غسلت دموعنا خطايا العالم .. وبزغ فجر صنعته تلك الدموع .. لم نغفل عنه لحظة .. صنعنا بقلوبنا سياجا منيعا .. بإصرارنا

سلاحا يرعب يهوذا العصر .. وارتفعت أغصان الزيتون .. ويهوذا مهزوم .. مدحور .. تحرقه قطع الفضة ..!

عاد سيل دموعها ينهمر من جديد .. تذكرت كلمات الطبيب .. «بس . المجهود ده فيه تهديد للطفل !».

عادت تصرخ بكل قواها وضربات السوط تتلاحق، تسبق أنفاسها ..

اقترب منها الطبيب .. ثم ربت على كتفيها:

« خلاص .. هانت».

سألته وبحر العرق يغرقها:

- ممكن يعيش؟

سارع الطبيب بقوله:

- " هدي نفسك إن شاء الله حيعيش ".

عادت دموعها المختلطة بحبات العرق تتسابق إلى النزول .. يهوذا القاتل .. يهوذا القرن العشرين .. يهوذا قاتل كل الأطفال .. موجات آلام كطعنات السيف تشتد .. خيل إليها أن صرخاتها تستغيث بالعالم بأسره.. تهذي:

" لكنا حرسنا مسيحنا ".

يهوذا قاتل كل الأطفال .. الذين رفضوا أن يسلموا المسيح.

ودوَّت صرخة فاصلة .. ثم كفت كل الصرخات .. والضربات .. مرت

لحظـات كل منهـا دهـر آلام .. كان جسـدها المنهـم مسـجى لا ينبـض فيـه غـير إحساسـها العـارم بالترقـب لعـودة الطبيـب انحبسـت أنفاسـها لحظـة .. وعينـا طبيبهـا تنطقـان بفشـل المحاولـة .. محاولـة إنقـاذ الوليـد.

انحـدرت دمعـة سـاخنة حـارة .. وهـي تتطلـع إلى الطفـل وقـد خنقـه يهـوذا .. بصماتـه فـوق عنقـه الصغـير .. أظافـره تـترك آثـارا مقيتـة مخيفـة، لكنهـا تبينـت في ملامحـه الصغـيرة شـبح ابتسـامة انتصـار وكأنـه يمسـح بهـا حبـات الحـزن والعـرق ويهمـس معهـا:

" ولكنا حرسنا مسيحنا ".

تكنولوجيا

عندما كنت حيّا دعاني صديقي لسماع موسيقى من جهاز إستريو .. سألته عن معنى الكلمة .. قال لي « سترى .. تنكولوجيا ..» لكني لم أر .. سمعت .. صوت الموسيقى .. ينبعث من كل جانب .. شعرت به يأتيني من الأرض .. يتساقط من السماء .. يتفجر من الجدران .. قلت لصديقي .. التكنولوجيا تحاصرني ! وعندما تدافعت إلى جسدي رصاصات ومتفجرات من كل جهة .. ضحكت .. كانت آخر ضحكاتي .. تذكرت جهاز الإستريو .. قلت في نفسي:

« كأنني هدف استراتيجي هائل .. انهالت عليّ العبوات الناسفة فأصابت رشاشي بالعمى .. ثم بالشلل .. تناثرت في بقعة كبيرة من الجبل .. كل ذرة من جسدي ودمي بعيدا عن الأخرى .. طبعا أصبح يستحيل على أحد التعرف عليَّ .. لكن أشلائي استطاعت أن تتعرف على بعضها .. قالت ذرة من دمي لذرة من جسدي .. سنكوّن صوتا بطريقة الإستريو .. ما أحلى التكنولوجيا وما أبشعها !! شربت ذراتي وارتوت من دموع أمي .. شاهدتها ذرات عينيّ تقف بالجبل وسط الطلقات .. لم تطلق صرخة .. كانت المدافع تصرخ لها .. حفرت دموعها في الجبل نهرا ساخنا تركته لأشلائي يرويها ثم عادت تترنح إعياء؛ لأن بحثها الطويل «عمن كنت» لم يهدها إلى ذراتي المتناثرة .. ألم أقل لكم إنني وحدي أعرف أماكن ذرات جسدي ودمي ؟ قلت لأمي بصوت الإستريو كفى دموعا ! غدا ستشرق الشمس .. سيعضون أصابع الندم ويحسدونني؛ لأنني مت بالبارود .. قطعا سمعتني أمي .. فقد كنت منتشرا على بقعة كبيرة كصوت الموسيقى من جهاز صديقي .. لم أستطع منع نفسي من متابعة أنباء القتال .. بذلت ذرات عينيّ جهدا

خارقا لتتجمع .. كنت في أمسّ الحاجة إلى أن أذرف دمعة في نهر أمي .. ليس حزنا على أشلاء الرفاق التي تنضم إليّ .. فكل منا يعرف هذا المصير ويتوقعه .. لكن أرادت دمعتي الانطلاق بعد أن اكتشفت وهمي الكبير .. كنت أتصور عدوي على الطرف الآخر من الجبل .. لم أتخيل أنه داخل جسدي نفسه .. أخذت أتنقل بين قصاصات الجرائد التي تلقى بالجبل .. كنت أشعر أحيانا " بالارتياح " خاصة إذا وجدت مقالا يدين بعنف من فتتوا جسدي .. حتى الأعداء انتقدوا " التبذير " في استخدام البارود .. رأيتني أتفق معهم في هذه النقطة .. حقا كانت رصاصة واحدة تكفي .. لمنعي من حمل رشاشي .. فما معنى الإسراف في استخدام هذا الكم الهائل من الطلقات عليّ؟

التفسير الوحيد هو أنهم أرادوا قتلي مليون مرة !

لم أكن أذوق طعم « النوم» أو « الراحة» إلا عندما يتقدم رفاقي .. وفجأة طار «النوم» من عينيّ ! كنت ألهث هنا وهناك لاستقبال الأشلاء الجديدة .. جاء اليوم صديقي صاحب جهاز الإستريو .. كنت متلهفا على سماع أخبار حبيبتي .. لم أرها منذ ذهبت للجبل وتناثرت فيه .. قال لي صديقي: إنها حفرت نهرا آخر بالوادي .. ثم حملت رشاشا ورحلت تبحث عني .. سرحت طويلا .. كم هي حلوة حبيبتي .. كانت تتمنى طفلا مني .. خسارة أننا لم ننجب قبل موتي .. سألت صديقي عن جهاز الإستريو .. أخبرني أنه عند نزار .. فإذا لم يأت إلينا وإذا لم يدمّر منزله .. سيسمع نزار من حين لآخر الموسيقى التي أحببناها معا .. على فكرة .. كيف كان صوت الموسيقى ؟ « انتظر .. كان» كان صديقي توقف .. ثم أخذ يصيح: بوم .. بوم .. بوم .. طلبت منه السكون

أقدام الأعداء تقترب .. لن ينجحوا في قتلنا للمرة المليون .. إذ لن يتعرفوا علينا .. هُسّ ! عاد الضابط الأشقر يصرخ في هيستريا: اضرب .. اضرب .. فتت حتى الصخور .. التي يختبئون بها . كان اللعاب يتطاير من فمه كسم الحية التي تتأهب للانقضاض على فريستها .. صرخ من جديد بصوت أجوف كريه: " خلّص عليهم قبل أن ينعقد الاجتماع " . سررت لخوف الضابط الحية .. فهو لا يعرف ولا شك أن قرارا بإعدامه سيصدر .. أحسن .. حتى تظل ذرات جسده في مكان واحد معلوم ولا يستطيع تغيير هُويته .. مادام ليس أشلاء .. انتهى الاجتماع .. انتظروا أرجوكم .. ولا كلمة .. دخلت ذراتنا نحن الأشلاء في سباق تلملم بقايا الصحف لنعرف ما أسفر عنه الاجتماع .. بدأت أعد ذرات عقلي .. العدد كامل .. لست إذن مجنونا ولا متوهما .. الضابط الأشقر، كما قرأتم قبلنا، مُنح وسام الشجاعة .. قال له السادة المجتمعون: خلاص .. لم يعد بيننا خلاف .. وما فات قد مات .. صدرت منهم كلمة الموت .. كما هو واضح في بقايا الصحف .. في كورس بارد أجوف .. في كورس بليد لا يتفق وجلال الكلمة .. وبدت آثار تكنولوجيا متقدمة في صور الابتسامات المرتسمة على شفاههم .. وكادت ذرات عقلي أن تتشتت مرة أخرى .. ونحن يا سادة ! نحن الأشلاء المتناثرة التي عهدت إليكم بأخذ الثأر ! نحن « الخلاف» الذي قلتم أمس إنه بينكم .. فكيف لم نعد ؟ من ذا الذي بالجبل والوادي والنهر « ذرات متناثرة» إذن؟ لن نقف مكتوفي الأيدي .. مررنا على الأشلاء الصديقة .. ضربت لهم موعدا نجتمع فيه .. تتساءلون عن قرارات مؤتمرنا .. فهي بالطبع لم تنشر .. حسنا .. سأنقلها لكم بأمانة .. لقد قررنا الآتي:

نحن الأشلاء المتناثرة .. سنكون صوتا وحدا ..

إستريو .. يصرخ فيكم ليل نهار .. يقضّ مضاجعكم يلهب ظهوركم

.. يغرقكم في نهر أمي وحبيبتي .. يحرق كل ما فيكم .. لن نترككم تهنؤون بشيء .. سنكون أوركسترا جهنميا مهمته مطاردة النوم من عيونكم العفنة .. أنتم جميعا لقد تداولنا كثيرا واقتنعنا بعدالة حكمنا .. فقد قرأتم الصحف قبل أن تصلنا أشلاء .. لا تحاولوا الإنكار .. لدينا شهود على ذلك .. بقايا الأطعمة والحلوى اللاصقة بقصاصات الصحف .. قرأتموها إذا .. ولم تحركوا ساكنا .. ظل كل منكم منغمسا في بلادته يتنقل بعينيه بين الكلمات والصور المنشورة .. تركتم الضابط الأشقر يتأمل نياشينه في زهو بعد أن زادت واحدا .. استراحت جثث ضمائركم .. مادام الخلاف قد انتهى فماذا يؤرقكم بعد ؟ سترون لقد وقفنا على أسرار التكنولوجيا وقررنا محاربتكم بها إلى الأبد .. نعم إلى الأبد .. فقد أصبحنا جزءا من هذا الأبد .. أو قل أصبحنا خلافا أبديا !

أيام لا تشبه تلك الأيام ..

كنت أميل قليلا أناوله كتابا طلبه مني .. جذبني إليه .. كان يفترش القاع مسندا ظهره إلى وسادة صغيرة خلف الحائط مسّ بشفتيه .. شفتيّ .. سرى في جسمي كله تيار كهربائي .. مادت الأرض تحت قدميّ في أحلى دوار .. حلقت بي المشاعر إلى جنة الحب .. تمنيت لو أن العالم توقف بي هنا .. لم أكن قد أفقت بعد من نشوتي عندما جذبني إليه في لمسة شفاه أطول من الأولر .. مادت الأرض أكثر تحت قدمي .. حلقت بأجنحة الحب إلى فوق السحاب .. وقد بدأ فجر أنوثتي كأعذب ما يكون في الفجر .. وربيعي السادس عشر تظلله شجرة الحب الخالدة.

***

مرت عشرة أيام ..

انسابت الزغاريد في أحلى معزوفة سمعتها أذناي .. قاومت نفسي وأنا أتمايل طربا مع إيقاع الموسيقى والطبول وكأنني أكاد أهب .. أشارك الراقصات .. احتفالا بـــ .. لمعت عيناي ببريق جديد .. وحبيبي .. الجديد .. يضع في أصبعي الخاتم السحري ..

قلت: نعم .. أقبله زوجا لي .. مدى الحياة .. قال: نعم أقبلها زوجة لي مدى الحياة .. طرقت باب رحلة جديدة .. مجهولة ساحرة خطوت أولى خطوات المشوار .

***

مرت سبعة أيام ..

أفقت من المخدّر وابتسامة عريضة على وجه أمي تحتضنني « أنجبت بنتا أحلى من القمر» أحضروها لي .. ضممتها إلى قلبي بكل ما تبقى من قواي الواهنة . . وكأنني أحاول إعادتها مرة أخرى .. إلى أحشائي .. كاد قلبي ينخلع من بين ضلوعي وأنا أضع قبلة جديدة .. غريبة .. على جبين هذا الجزء الصغير .. الذي يحمل في طياته سر حياة .. أو ممات .. الأحشاء التي منها خرج .. لم أر الكون إلا من خلال ابنتي .. احتلت ركنا هاما في علاقتي بالله .. أقف مشدوهة أمام قدرته الرائعة التي خلقتني خلقا جديدا .. في صورة أحبّ إلى نفسي من نفسي .

***

مرت خمسة أيام ..

قال لي الطبيب متسائلا:

- أمازالت الدورة تأتيك ؟

غاص قلبي في قدميّ .. علا وجهي اكفهرار يشبه الموت .. أصبح وجهي لون التراب .. أو الحائط .. أو .. اللالون .. ضاق بي سريري وكأن جدران المستشفى كلها أطبقت على رئتي .. تعثر الردّ في حلقي .. أنبتُ عني للإجابة نظرة حزن غائر تطلّع إليَّ الطبيب وقد هاله لون وجهي .. أردف متلعثما: آسف .. مازلت شابة فعلا كي أطرح عليك سؤالي هذا .. خرج الطبيب .. قبل أن يبلغ الباب .. قفزت من سريري تطلعت إلى المرآة .. سالت دمعة حارة من عينيّ .. وجدت في خطوط قسماتي المحفورة .. مجرى يسيرا لها.

مرت ثلاثة أيام ..

قامت طفلة من فوق مقعدها بالمترو .. ابتسمت ابتسامة حلوة بريئة وهي تعرض علىّ مقعدها .. أخذت مكانها وأنا أتمتم لها بالشكر .. كانت قدماي لا تقويان على حملي .. ابتسمت لها بدوري ابتسامة عرفان بالجميل .. تذكرت كم كنت أشعر بالفخر وأنا أقدم مكاني لعجوز تنوء تحت وطأة السنين .. عدت إلى منزلي .. التقيت بمرآتي .. تمعنت طويلا في الإكليل الأبيض الذي يعلو رأسي .. ابتسمت ابتسامة لا تشبه ابتساماتي السابقة.

***

مر يوم واحد ..

حضر الطبيب على عجل .. ضغط على يدي يقيس نبضي .. فلتت من عينيه نظرة أشاعت الذعر في أوصالي .. حاول تهدئتي . سألني إن كنت أشعر بدوار .. أجبت بأنني .. لم أعد أحتمل ضيق صدري .. وأنني .. أت .. ن .. ف .. س .. ب .. ص .. ع .. و .. بة.

يوم العيد

ترى؟ منذ متى يا ربي رأيتها لأول مرة؟ لا أذكر بالتحديد .. ولكن لم يمر عام على وجودها معنا .. إذ لم نقض معا «عيدا» من قبل .. نعم .. فاليوم بالذات يذكرني بأنه لم ينقض عام على معرفتي بها لأول مرة .. وضحكة مكتومة من نفسي يومئذ .. تلك الضحكة لم تخل هذه المرّة من مرارة .. فأنا كلما رأيت فتاة أو بمعنى أدق أنثى لا أدري الباعث على تلك الحركة اللاشعورية التي تتجه بها عيناي تنتقل بين أصابعها .. وهل الخاتم الذهبي في يمناها أم في يسراها .. وكأن فتيات العالم كله مقسم إلى فريقين: أحدهما يحمل الخاتم في اليمين والآخر في اليسار .

وأذكر يوم أن قال لي زوجي:

" أنا حنشر في الإعلانات المبوبة عن وظيفة خاطبة متطوعة ! "

فهو يعرف عادتي تلك ويغيظني بها كلما دارت مناقشة أخذت فيها نصيبي متحدثة بحماسة لا حدود لها عن استقلال المرأة .. الاستقلال الذي أبحث معه دائما عن الخاتم الذهبي !

كان وليدنا في الشهور الأولى.

وهزت رأسها بالنفي وعيناها منكستان.

وسرحت قليلا يومها .. لقد تعدت بالفعل مرحلة الزواج بزمن ليس بقصير .. ولكن؟

وفي مساء نفس اليوم همست لزوجي بالخاطر المجنون الذي لم

يعـد غريبـا عليـه:

- ممكـن لـو كانـت فوقيـة إنسـانة عظيمـة مـن ناحيـة الأخـلاق والشـخصية حـد يتجوزهـا؟

وأجاب زوجي في لامبالاة:

أعوذ بالله !

قالهـا بثقـة لا أثـر فيهـا لأي شـعاع مـن الأمـل يمكنـه التسرب إلى خيـالي .

وبـدأت أسـترجع ملامحهـا في ذاكـرتي .. فأنـا لم أر في حيـاتي أنفـا بهـذا الحجـم .. وكأنـه في غفلـة مـن الزمـن أخـذ ينمـو وينمـو حتـى تنبـه إليـه ولكـن بعـد فـوات الأوان .. وهـذا اللـون الغريـب الـذي يكسـو بشرتهـا .. فهـو ليـس بالأسـمر ولا بالأسـود .. بـل مزيـج صبغهـا بزرقـة قاتمـة .. ولفـة مـن «سـلوك الكهربـاء» زرعـت في فـروة رأسـها تناثـر كل فـرع مـن فروعهـا في اتجـاه .. باختصـار شـعرت أن ذكائي قـد خانني وأنـا أسـألها:

- متجوزة؟

حتى أبددّ الشك باليقين عندما لم تعثر عيناي على الخاتم الذهبي.

تفتحهـا باهتـمام شـديد ثـم أخرجـت منهـا دائـرات للـف الشـعر وكل مـا يلـزم لهـذا الأمـر .. بعـد قليـل دخلـت الحـمام .. وأخـذت بعـد خروجهـا تقـف أمـام المـرآة وتلـفّ شـعرها في عنايـة بالغـة كـما لـو كانـت تسـتعد لحفـل عرسـها .. وبعـد أن ربطـت منديـلا فـوق رأسـها بـدأت في كيّ حاجياتهـا .. وأثـار دهشـتي أنهـا لم تضـع كل مناديلهـا في الحقيبـة السـوداء التـي كانـت تنظفهـا منـذ قليـل .. بـل عـدّت أربعـا منهـا فقـط .. وأخـذت

تـروح وتغـدو في المنـزل في خفّـة بالغـة . إلى أن هـدأت ثـم جـاءت بجـواري وهمسـت:

- كل سنة وأنتم طيبين .

رفعـت وجهـي إليهـا فـإذا بابتسـامة حقيقيـة لم أرهـا ترتسـم أبـدا عـلى وجههـا منـذ جـاءت إلينـا .. وكأن كل مـا يحـدث معجـزة متصلـة.

رددت عليها وأنا أتساءل:

« تُرى؟ .. أيغير زوجي رأيه لو أنه شاهد تلك الابتسامة ! ؟»

وفوقيـة لا يبـدو عليهـا التـضرر لكـثرة تطلعـي إليهـا .. فهـي أيضـا قـد ألفـت عـادتي السـيئة تلـك.

وانتظرت حتى انتهيت من تأملاتي لملامحها وقالت:

- عن إذنك يا مدام .. أنا رايحة بكرة القرافة !

- ولسـت أدري بحـق الشـيطان مـا الـذي دفعنـي لأن أقـول لهـا في لهفـة:

- آجي معاك !

ربمـا كان فضـولي إلى باقـي فصـول المعجـزة .. ربمـا لأن كل مـا حـدث الآن قـد أرغمنـي عـلى أن أعـرف مـاذا بعـده .. لسـت أدري بالتحديـد .. ولكـن لم يخـف عـليّ أن الأمـر كان مفاجـأة لهـا .. وإن قابلتهـا بابتسـامة واسـعة وترحيـب حـار ..

ثم سألتني النزول من البيت ..

وبعـد قليـل عـادت تحمـل كميـة مـن الشـوريك والبلـح الأبريمـي .. وبعـض البرتقـال واليوسـفي .. وقمـت معهـا في الفجـر .. وكل مـا حـدث بالأمـس يجـري أمـام عينـي وكأنـه شريـط سـينمائي كلـما انتهـى عـدت أديـره مـن جديـد إلى أن وصلنـا .. مشـيت معهـا حتـى القرافـة وشـعرت برجفـة تـسري في أوصالهـا .. يـا إلهـي كأن هـؤلاء النـاس قـد قضـوا ليلتهـم في المقابـر .. وراعنـي الضجيـج الهائـل عنـد دخـولي . . وكأننـي في سـوق بالقريـة .. سـوق الحـزن .. يجمـع كل الأنـواع وكل الطبقـات .. يشـتركون جميعـا في شيء واحـد .. الثـوب الأسـود .. وشـعرت بنفـسي غريبـة بينهـم .. سـيدة تجـري حافيـة القدمـين وفـوق رأسـها مقطـف وأخـرى يبـدو عليهـا الـثراء .. فهـي حتـى في هـذا المـكان تحمـل خادمـة صغـيرة سـبتا كبـيرا .. بالـكاد أقـصر مـن الطفلـة .. وجماعـات مـن النسـاء يتحدثـن ولا يبـدو أن لحديثهـن علاقـة بالمـوت .. وأخريـات يفترشـن الأرض وحولهـن جمـع مـن الأطفـال يطالبـون بالرحمـة .. وتعلـو أصواتهـم بالدعـاء « في الجنـة يتهنّى» .

وأنـا ألهـث خلـف فوقيـة .. وصـوت مقـرئ يتطـرق إلى أذني ولا أتبـين حرفـا واحـدا مـما يقـول .. وامـرأة .. تـصرخ ماتاكلـش السـورة يـا سـيدنا الشـيخ !

ونـواح مـن بعيـد .. كان المرحـوم عزيـزاً .. كان يعمـل .. ويسـوي .. وكأنهـا تسـتثير عاطفـة الحـزن فيمـن حولهـا .. انتهـى فعـلا بانتصارهـا .. وانطلقـت الصرخـات مـن الحناجـر تضفـي رهبـة عـلى تلـك الرهبـة التـي شـملتني عنـد دخـولي .. وعـشرون شـيطانا في سـاقي فوقيـة .. ارتمـت معهـم فجـأة فـوق كومـة مـن الـتراب وأخـذت تطلـق عويـلا مروعـا .. وكأنهـا حيـوان جريـح .. ونقـل إلى عويلهـا عـدوى الـصراخ الحـاد .. فقـد شـعرت بصرخاتهـا تمـزق قلبـي .. وفوقيـة تحتضـن كومـة الـتراب .. وعويلهـا يـزداد ويـزداد ويداهـا تتسـعان إلى حـد جعلنـي أتصـور أنهـا تضـم بهـما المقابـر

كلها .. وأنها وحدها تعوي وسط كل هؤلاء المتشحات بالسواد .. مددت يدي أمسك بها ورجفة تنفذ إلى عظامي جعلت يدي في برودة الثلج .. دفعتني دفعة كدت أرتمي أرضا لفرط قوتها .. وكأنها لا تسمح بأية صورة أن يسلبها أحد حقها في أن تضم هذا التراب أو أن تسترسل في هذا العويل .. مرت عدة دقائق قبل أن أسترد أنفاسي بعد أن خفتت القوى الجهنمية من حنجرة فوقية .. وهي تغرق منديلا بعد الآخر إلى أن وصلت إلى رابع منديل .. وهنا تراخت ذراعاها فوق التراب .. وهدأ عويلها إلى أن تحول إلى دموع صامتة .. وشيئا فشيئا استردت صوتها الإنساني وهي تقص لنفسها ذكريات لا تنتهي عن طفولتها .. ويزداد الأسى واللوعة في صوتها .. كم كان والدها يهدهدها وكم كانت أمها تعتني بملبسها ! ولا شيء غير هذا .. خالجني شعور بأنها لا تزال طفلة فعلا في تلك اللحظة وأن بكاءها سيتوقف إذا ما نهض أبوها من قبره مادا إليها قطعة من الحلوى .. أو إذا أمها قامت لتحملها فوق ركبتيها .. ودموعي تتساقط في صمت وأنا أستمع إليها .. ووجدتني وحدي معها في هذا المكان الموحش فمددت يدي أمسك بيدها .. واستسلمت وإن لم تخل عيناها من نظرة عتاب حزين وكأنني أنتزعها من أحضان عالمها .. وخطواتها ثقيلة كما لو كانت تحمل قرنا من الزمان فوق قدميها .. وتستدير من لحظة لأخرى إلى كومة التراب .. ولم تنبس كلانا بكلمة واحدة حتى أدركنا المنزل .. وارتمت فوقية في غيبوبة عميقة تشبه النوم .

الوشم

استنشـق نفسـا عميقـا حتـى مـلأ رئتيـه مـن ذاك الهـواء الرطـب الجميل وهـو يرقـب قـرص الشـمس تتـلألأ فيهـا حبـات الذهـب علامـة الـشروق .. تنبـئ بيـوم دافـئ رغـم أن السـاعة لم تتعـد السادسـة والنصـف صباحـا .. مـا أجمـل شـتاءنا .. شـتاء مـصر الدافـئ .. الأسـطوري الـدفء .. انفرجت شـفتاه عـن كلمـة شـكر هامـس للـه والطبيعـة التـي رفقـت بحـال الصغـار الثلاثـة .. وزوجتـه تنـادي بصـوت يقطـر حنانـا:

- لقد آن لك أن تنزل .. فهذا موعد اللحاق بالقطار .

كانـت نـبرات صوتهـا تحمـل هـذه المـرة « سـعادة» غريبـة، لم تشـعر بها منـذ سـنوات عديـدة .. يـوم اسـتقبلت معـه مولودهـما الأول واسـتعذبت عيونهـما ملامحـه الدقيقـة، بـل وحتـى بـكاؤه .. ماهـر .. أول فرحـة .. تلـك التـي أعقبهـا مولـودان آخـران .. ولكـن .. ظـل البحـث عـن " الفرحـة "، أمـا اليـوم فقـد أخبرهـا زوجهـا الحبيـب مكـرم .. أن المهنـدس الجديـد الشـاب يحيطـه برعايـة شـديدة تقديـراً لمهارتـه في العمـل وكانـت المكافـأة أنـه أمـر بنقلـه إلى قسـم أهـم، تمهيـدا لتحسـين أجـره .. ورغـم أن « العـلاوة» الموعـودة لم تـأت بعـد، إلا أن شـعورا بالرحـة قـد أثلـج صدريهـما وقـالا معا: قـد يكـون ذلـك " رزق " الابـن الثـاني فـؤاد .. فنسـتطيع إدخالـه المدرسـة العـام المقبـل بـدلا مـما كان مخططـا لـه بإرسـاله إلى ورشـة الأسـطى عبـد اللـه .. بعـد " البـشرى " التـي أسر بهـا إليهـا، طـار النـوم بعيـدا الليلـة الماضيـة وتـرك مكانـه « قـسرا» للأحـلام الوريديـة .. أحـلام اكتسـبت في تلـك المـرة « شرعيـة أكيـدة» بعـد إطـراء المهنـدس الشـاب لجهـوده والإشـادة بمهارتـه .

أخـذت الأحـلام تداعبهـما وتذهـب بهـما بعيـدا .. سـيتعلم الأبنـاء ماهـر وفـؤاد وسـعاد .. سيشـغلون مواقـع مرموقـة ويتجنبـون « الوقـوف عـلى قمـة التّـل « .. تحـت نـار الشـمس الحارقـة صيفـا .. وصقيـع ينايـر الـذي يخـترق العظـام شـتاء .

يسـتطرد في سرد مـا يلاقيـه مـن عنـاء في العمـل إلى شريكـة حياتـه التـي تـزداد تمسـكا بـه وهـي لا تنـسى كيـف اسـتجاب لمطلبهـا بالكـفّ عـن التدخـين « متعتـه» الوحيـدة .. وضغطـت عـلى كفيـه قبـل أن تلثمهـما بشـفتيها .. فهـي وأولادهـا يدركـون أن هاتـين اليديـن .. وحدهـما .. تبقيـان عليهـم .

كان هـذا الصبـاح هـو الأول منـذ أمـد بعيـد الـذي جـاء بعـد « ليلـة مـن الأحـلام الحلـوة» .. فـكان مـن الطبيعـي أن يسـتقبله صـدره بترحـاب حتـى لـو كانـت نسـماته لا تـزال محملـة بـبرودة الليـل .. توجـه إلى عملـه ومازالـت الأحـلام الورديـة تشـاغله ويتخيـل المهنـدس الشـاب بطولـه الفارع في صـورة بطـل أسـطوري يمـد لـه يـده يـد الإنقـاذ يجذبـه مـن درجـة السـلم حيـث يقـف إلى درجـة أعـلى.

اشـتعل حماسـا مـما جعـل المهنـدس الشـاب يقـترب منـه وابتسـامة رضـا عـن نشـاطه تعلـو قسـماته وذهـب إلى حـد سـؤاله عـن « الأحـوال» .. أجـاب مكـرم: الحمـد للـه أشـكرك شـكرا جزيـلا . ! كانـت عبارتـه بنـبرات مختلفـة لم يعهدهـا مـع المهنـدس الـذي سـبق رئيسـه الجديـد .. عـادل .. إن "عـادل" هـو أول رئيـس يبتسـم .. يعاملـه وزمـلاءه بتهذيـب شـديد .. يظهـر قـدرا كبـيرا مـن الحنـان يزيـد رجولتـه بريقـا .. وفجـأة .. انقضـت يـد ثقيلـة عـلى صـدره فـكادت تمنـع عنـه الهـواء .. تمنـع عنـه الحيـاة .. فقـد طـاف بخيالـه خاطـر بـدا ثقيـلا .. كاد يخنقـه .. مـاذا لـو عـرف المهنـدس الجديـد

"حقيقـة " الأمـر؟

ازداد ضغـط « اليـد الثقيلـة» .. عنفـا وضراوة وهـو يرفـع عينيـه إلى السـماء يتـضرع إلى اللـه، وحمـرة الخجـل تغطـي كل قسـماته أن يقبـل اعتـذاره .. فهـو يعـرف أنـه لا يسـتطيع إخفـاء شيء عـلى الخالـق .. كادت دمـوع الألم تطفـر مـن عينيـه .. وعـاد «السـؤال» مطرقـة تـدق عـلى رأسـه: أيعـرف المهنـدس الشـاب «حقيقـة» الأمـر؟

وتمنـى لحظتهـا أن يسـتطيع العـودة لثـوان إلى منزلـه .. يوقـظ زوجتـه مـن «الأحـلام» التـي حملهـا إليهـا ليلـة أمـس .. سـيقول لهـا إنـه نـسي أن يطلعهـا عـلى «السـؤال» الـذي اقتحـم « أحلامهـما» وفجـأة .. تنبـه إلى وجـود المهنـدس الشـاب أمامـه .. رفـع إليـه عينيـه حائرتـين .. هـمّ أن يفـضي إليـه بمخاوفـه .. غـير أن "عـادل" لم يمهلـه إذ سـأله بصـوت حاسـم:

- لماذا تلوّث يديك بكل هذا الشحم؟ .. أرني إياها ..

- وكأن عقربـا قـد لـدغ مكـرم .. أخـذت نظراتـه الزائغـة تنتقـل بـين «السـماء» ووجـه المهنـدس الشـاب .. تعجـب عـادل لحـال مكـرم الغريـب .. صـاح بـه مـن جديـد:

- أرني يديك !!

أجاب مكرم بصوت واهن قريب من اليأس:

- إن يديّ نظيفتان يا باشمهندس ..

استبد الفضول بعادل فعاد يلحّ بشدة:

- أرني إياهما ..

مـد مكـرم يديـه ببـطء وكأنـه يُسـاق إلى صخـرة لا قلـب لهـا تحطـم أحلامـه في غمضـة عـين .. واليـد الهائلـة تـزداد قوتهـا في الضغـط عـلى صـدره .. فـرد يديـه مستسـلما.

ابتسم المهندس الشاب وهو يلحظ .. في إحداهما .. وشماً لصليب !!